



حيدر حيدر



التموجات

قصتان

حيدر حيدر

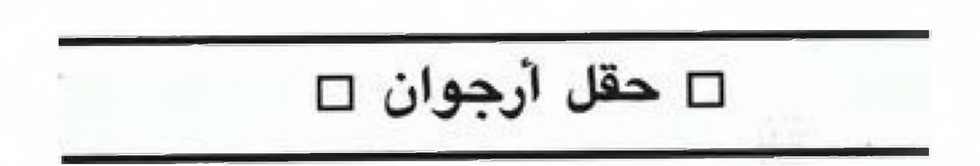
التموّجات

قصّتان

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير
ت : ٣١٢١٥٦ ـ برقياً : موكيالي ، بيروت
ص . ب . ٥٤٦٠/١١ بيروت

الطبعة الأولى

كانون الثاني (يناير) ١٩٨٠



□ حقل أرجوان □

قضا

نقه

وأه

بل

«حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعِها إلى الصلح ، فإن اجابتك وفتحت لك فكلّ الشعب الموجود يكون لك للتسخير ويُستعبَدُ لك . وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصِرْها . وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحدّ السيف . وأما النساء والأطفال والبهائم وكلُّ ما في المدينة ، كلُّ غنائمها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة اعدائك التي اعطاك الرب إلهك . هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا . وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبْقِ منها نسمة ما ، بل تحرّمها تحريماً (أي إفناء) كما أمرك الرب إلهك» .

«سفر التثنية/الاصحاح العشرون» .



الفصل الأول

□ زمان الذاكرة □

□١□

ليس في الأمر ما هو خارق. زمن المعجزات مضى، كذلك زمن الناس المحايدين. لقد أقبل الزمن الفلسطيني الملون بالدماء والحرائق والشقاء.

انني أروي ذلك بعد سبع سنوات ونصف من السجن، وبعد ثلاثين عاماً من شتات الشعب في تيه الأرض، والحصاد ذراع مقطوعة وبطن مثقوب ينزف صديداً ودماً ورصاصة ما تزال في العمود الفقري.

ان حكايتي بسيطة وعادية في زمننا. حتى الخارق والاستثنائي والمعجز، صار في حياة شعبنا مألوفاً ألفة شروق الشمس وغروبها. في قرية «عينا بوس» شاهدت النور. وفي حيفا، فيما بعد، شاهدت الظلام والنار. ابي فلاح يملك ارضاً صغيرة في القرية. كان يزرعها خضاراً وحول الأرض تقوم ست شجرات زيتون وشجرتاتين ودالية وثلاث شجرات رمّان. محصول الأرض لم يكن يكفي العائلة التي تكاثرت مع الزمن تكاثر الارانب حتى صار عددها تسعة، لذا هاجر والدي إلى حيفا ليعمل سائق سكة حديد لدى الانكليز.

حدث ذلك في أواخر عام ١٩٣٥.

لم نهجر بيتنا في قضاء نابلس. في الاصياف كنا نعود إليه. بيت أبيض من الحجر الصلب مسقوف بالجذوع والشوك والقُصّار الرمادي. أمي وأبي بنياه من حجارة وشجر الطبيعة فوق تلة مطوقة بالغابات وكروم الزيتون. بعد ان تنتهي إجازة والدي يتركنا في عينا بوس ويعود إلى حيفا. وفي أواخر الخريف بعد

أن تجني الاسرة خيرات الأرض وزيت الزيتون ، نحمل المؤونة ونذهب إلى بيتنا في حيفا .

●

لا أذكر الكثير من أحداث طفولتي الأولى. الطفل الثالث بين أربعة ذكور وخمس بنات يكاد لا يتمايز ولا يُستثنى . انه يشبه شجرة في بستان كثيف أو موجة في بحر.

البيت الحيفاوي كان واسعاً وجميلاً. حديقته مغطاة بالورود واشجار البرتقال والرمان على مسافة منه البحر ومن الشرق جبال الكرمل الخضراء. يروي أبي عني بعد أن كبرت أنني كنت طفلاً يحب الأمور العملية. يشتري لي ألعاباً فأفككها في اليوم الأول ثم أحاول تركيبها من جديد. كان يسميني «الميكانيكي الصغير» ، ويقول أيضاً بأنني كنت أنانياً ، أكره البنات وأضرب أخواتي بقسوة.

وفي السهرات بين اعمامي والجيران يتهكم على خيباتي في الصيد ، وكيف كنت اشتري العصافير من الصيادين أو أعود ومعي حشائش من الزعتر والجرجير والتين بدلاً من الطيور.

أمي كانت تقدم صورة أكثر اثارة للسهارى والاقارب : نافذ ولد غريب الاطوار لكنه من سلالة الكولونيل محمد. لم يشترك في شجار مع أولاد الحارة إلا وكان المنتصر. فيه الكثير من خاله . صحيح أنه غير أليف على ما يبدو في وجهه ، لكنه من الداخل صافٍ كالنبع ومستقيم مثل حدّ السيف ، لا يكذب ولا يسرق .

كانت أمي تصرعنا بسيرة أخيها الملازم محمد والتي رفّعته إلى رتبة كولونيل يقاتل في جيش رومل ، ويحقق للالمان كل انتصاراتهم على الانكليز في العلمين وليبيا وشرق السويس.

كنت استمع قبل النوم إلى هذه الحكايات، وإلى روايات أمي عن خالي والمعارك الوهمية التي يخوضها. وما كنت لأسأل ان كانت هذه القصص حقيقية أم من خيال أمي. كانت ترسو في أعماقي. ومع الزمن رسمت في رأسي صورة اسطورية عن خالي: البطل المحارب والذي لا يُقهر.

●

البلاد وما يجري فيها كانت تؤرق الناس. فلسطين تحت النار: نار الانكليز ونار اليهود. أبي الموظف عند الانكليز كان يكره السياسة ويحايد عنها. لقمة العيش لتسعة أفواه وضعت الرجل على هامش الحرائق. انه يستيقظ مع الفجر ليقود قطاره وفي أواخر الليل يعود منهكاً. رجل متدين يصوم ويصلي ويدعو الله كي يحفظ الاسرة من الشر والفساد والجوع. وعلى النقيض منه كانت أمي. امرأة قوية معتدة بأخيها الذي يقاتل عنّا ويفضح حياد أبي. عواطفها مع الالمان والمفتي. انها تحكي بصوت عالٍ عن جرائم الانتداب الانكليزي وانحيازه مع اليهود. تتحدث عن بربرية جيش الاحتلال في صفد: كيف ان الجنود البريطانيين لم يتركوا باباً ولا شباكاً إلا وكسروه بعد مظاهرات الاهالي، وكيف أغاروا على البيوت فأتلفوا الأمتعة والأواني والأثاث. خلطوا المؤن ببعضها البعض وألقوها على الأرض، وسكبوا الزيت فوق الحنطة، والسمن فوق الحبوب والطحين والبترول، وكيف حطموا المتاجر ومحتوياتها، والقوا المواد السامة في آبار الشرب، ثم احرقوا عدداً من البيوت، وسلبوا النقود ومصاغ السيدات، وداسوا القرآن بأرجلهم: لقد اعدموا الشيخ فرحان السعدي وهو ابن ثمانين عاماً لأنه يحتاز بندقية قديمة كانت معلقة على جدار غرفته. اعدموه في شهر رمضان استفزازاً للمسلمين وتحدّياً لهم. واثر ذلك استنفر المئات من الاهالي الشباب والتحقوا بقوات الانصار المقاتلة في الجبال.

كان الأب يتأفف من هذه الحوادث: ما لنا ومال السياسة يا امرأة. العائلة

أهمّ من السياسة. نريد ان نعيش بسلام ونأكل خبزنا بهدوء، الشيخ القسّام طلع إلى الجبل وأعلن الجهاد واستشهد - الله يرحمه - بدون نتيجة. هل نحن أقوى من القسام؟ وتردّ أمي بعنف المرأة التي تستبطن رجلاً: يلعن أبو اللقمة المغمسة بالذل. أي والله. والله. إذا اخذ اليهود فلسطين ستكون حياة الكلاب أفضل من حياتنا.

ويجيب أبي: عندنا بيتنا في عينا بوس. وترد: هؤلاء اليهود سيأخذون كل شيء، وانكليزك أصل المصائب. يا رب ترجع الكولونيل محمد حتى يلعن أبو الانكليز واليهود مع بعضهم البعض. يصمت ابي على مضض. ينهض إلى صلاة ما قبل النوم، ثم يستلقي في فراشه ويدخن سيجارة وهو يهجس: إذا عاد ذلك الكولونيل - الشبح فسيأتي الخراب على يديه.

□٢□

يوم أصيب في وادي النسناس وجاءنا الخبر، صرخت أمي : آخ يا ويلي. انكسر ظهرنا. وتحت نيران القناصة، جرت وهي حامل في شهرها السابع .كانت تهرول وهي تعول وتصيح رافعة قبضتيها نحو السماء : انكسفت شمس فلسطين. راح الغالي راح. وين الرجال وينها! آه. يا ذلّنا من بعدك.

صرخوا بها ان تعود لأن الوادي مطوّق، والجريح الذي سقط صار فخّاً لكل من يقترب منه. لم تبال ولم تسمع. كانت تندفع بجسدها الضخم كإوزة يطاردها الموت، وهي تزغرد صاعدة سفح الكرمل المشجر. أنا وأخي ياسين تبعناها ونحن نبكي.

قبل أن تصل إليه بثلاثين متراً، قطعت رجلها شظية قنبلة. زحفت وهي مخضبة بالدم وعانقته. كان ما يزال حياً وجرح صدره ينزف.

ما أتذكره جيداً هو مستشفى حيفا. خالي مصاب بطلقة في صدره وأمي مقطوعة الرجل. رجال يدخلون ويخرجون، وممرضات يتحركن بسرعة في ردهات المستشفى يحملن الضمادات والمصل. كان عمري آنذاك ثلاثة عشر عاماً، وكنت اجلس على حافة السرير قرب الكولونيل الأسمر المثقوب الصدر. ابي واعمامي واخوتي يتنقلون بين غرفة أمي وغرفة خالي الذي ما يزال بكامل وعيه، وحوله جماعة من فدائيي دفاع فلسطين الذين درّبهم بعد هربه من الجيش الألماني، لكنه كان يتنفس بصعوبة وهو مستند إلى قاعدة السرير الخلفية. عندما حضر الصحفيون ليسألوا قائد حرب عصابات الجبل عن الثورة التي انتهت بنهايته، قال الطبيب معترضاً: الجريح متعب ولا يحتمل الأسئلة.

كان مدركاً انه سيموت. هذا الفراغ في صدره كان يحسّه وكأنه فراغ هاوية. بين حين وآخر كان يطلب ماء ولكن الممرضة كانت تكتفي بمسح شفتيه الجافتين بخرقة مبللة. كان الماء يساوي الموت لجريح ثقب الرصاص رئته اليسرى وكبده.

ورغم ذلك أصرّ بعناد على مقابلة الصحفيين.

عندما سأله صحفي انكليزي إن كان يعتقد بأن هذا النمط من العمل الفدائي يحرّر فلسطين، نهض قليلاً. ساعده في ذلك أحد المجاهدين. كان في عينيه بريق النمر، لكن صوته وحركته كانا واهيين. لقد تحدث بصعوبة عن فلسطين أرض الانبياء والشهداء. الأرض التي لم يتوقف الصراع فيها يوماً إلا ليبدأ من جديد من زمن يشوع بن نون حتى عز الدين القسّام. وتنهد فأحس بالاجهاد: كانت المعارك سجالاً بين اليهود والعرب. قد لا نحررها نحن الآن لكنها لن تكون لليهود أو للانكليز إلى الأبد. الفدائية والجهاد هي النار والمهم ان تظل هذه النار مشتعلة. كان يتنفس من ثقب الجرح: المهم ان تتابع الأجيال الخطوات التي خططناها. نحن تابعنا ثورات الـ ١٧ والـ ٣٦ والاجيال القادمة تعرف درب الدم لأنها نمت على هذه الطريق.

وسأله الصحفي: من أين يأتيك هذا اليقين ما دامت كل ثوراتكم قد انتهت إلى الفشل؟

وقال وهو يشير إلى صدره: من جرحي. نحن قوم نحب الموت لأننا نؤمن بالجنة. الشهيد عند المسلمين يذهب إلى جنة الخلد. هذا أولاً.

وعلى نحو فاجأني فيه، مدّ كفه العريضة المرتعشة ووضعها على كتفي، ثم نظر بعمق واعتداد فتلاقت عيوننا: ثانياً. انظر إلى هذا الشبل. ان هؤلاء لن ينسوا. نحن العرب عندنا مثل يقول: البدوي يأخذ بثأره ولو بعد أربعين عاماً. ومع ذلك هذا البدوي مستعد لذبح ابنه ليطعم ضيفه الشهم. أما من يرفع السيف في وجهنا فليس له إلا السيف. واستطرد بحشرجة: سأقول لك شيئاً خاصاً انا اعتقده. أتعلم ما هو؟ نحن العرب ننجب كثيراً وانتم تعتقدون ان ذلك بدافع الشهوة. أبداً. نحن ننجب كثيراً لأننا نموت كثيراً. كان واضحاً أنه يرى الآن اشباح الموت وراء امواج عينيه اللتين راحتا تجولان في وجوه الناس المحيطين به: الموت يحصدنا ويطوقنا. ينبغي أن تكون العائلة كبيرة حتى لا ينقرض النسل.

وضغط على كتفي وهو يحشرج : أين فدائيي الدفاع . آه . يا إخوتي . يا إخوتي . مدّوا اذرعهم فسقط رأسه بين ايديهم .

وصرخنا . .

لكنه كان قد مات . وارتفع التكبير بأصوات راعدة وجريحة اختلطت مع جهشات النحيب في ردهات المستشفى وممراته .

●

بعد اسبوعين خرجت أمي من المستشفى وهي تدق الأرض بعكازها . المرأة – اللبؤة والتي كانت شخصيتها تطغى على شخصية ابي ، والتي تزن أكثر من تسعين كيلو غراماً . المرأة التي كانت ناهضة كالقصبة . تتكسر الآن فوق عكازها فتبدو كشجرة ناحلة جذعها ينحني نحو الأرض . لقد انكسر ظهرها كما قالت بعد سماع خبر اصابة اخيها ، وربما ما كانت بحاجة إلى هذه الساق الاصطناعية لتهوي . لقد اصابها موت كولونيلها في مجرى دفق الدم عبر الاعصاب فانهدمت . حزن والدي وأسف ، لكنه في اعماقه شعر بالراحة لأن سطوة اللبؤة والتي كان يسميها الفرعونة ، قد هدت . كان جدارها اخاها ، وكانت تتوهم بأنه سيقود شعب فلسطين بعد استشهاد القسام ليدحر بهذا الشعب اليهود والانكليز ، وعندما كان أبي يراوغ في مواقفه مبشراً بالسلام العام والاسرة والحياة اليومية لاعناً السياسة أمّ المشاكل والمصائب ، كانت تلك الام تنهره وتتهمه باللاوطنية .

الآن سقط الجدار ، وعادت امي قعيدة تمضي معظم وقتها ساهمة في فراشها ، وفي أواخر الليالي تغني وتبكي بهدوء حزين .

●

على مدى اسبوعين والعائلة تقوم بخدمتها والعناية بها . حتى والدي الذي

كانت تناكده وتشاحنه فيهرب منها إلى المقهى أو السهرات العامة ، لازمها وخفف من مصابها .

أنا وهي كنا ننام معاً . انها تعتقد في قرارتها بأنني وريث خالي . بعد أن هدأت حالتها النفسية وبدأت تعود إلى طبيعتها ، كانت تروي لي في الاماسي كيف نظم الكولونيل محمد ودرب الفدائيين على صناعة المتفجرات ورمي القنابل ، كما روت لي بطولاته في جيش رومل وجبال الكرمل بعد هربه ، وانه بعد أن احتل موقع «حسبة المدار» في حيفا مع مجموعة فدائيي الدفاع ، طوقه الجيش الانكليزي بقوة كبيرة من المصفحات فاضطر للانسحاب إلى وادي النسناس ، وهناك ظل يقاتل كالنمر من صخرة إلى صخرة ومن شجرة إلى شجرة إلى أن أصيب بطلقة قناص .

سألتني عن لحظاته الأخيرة في المستشفى فرويتها لها ، وقلت بأنه وضع يده على كتفي وضغط وتلاقت عيوننا ، وبكيت ، وقلت له لا تمت يا خالي فنحن لا نريدك أن تموت ، ثم حكيت لها بأن فدائيي الدفاع اقسموا بالدم وهم يبكون ألا ينسوا ما تعلموه منه .

□٣□

مع اقتراب الاربعين يوماً على موت خالي قالت أمي : جهز نفسك للذهاب إلى المقبرة. ستذهب إلى سفوح الكرمل وتأتي بالريحان الأخضر ثم تشتري من السوق البخور لقبر خالك المرحوم.

كانت قد بدأت تتحرك وتخرج من البيت إلى الحديقة وبيوت الجيران. وكان واضحاً أنها ابتدأت تسترد روحها القوية، متجاوزة ما أمكن الصدمة القاتلة التي هشمت عنفوانها ومثلها الأعلى.

غير أن الانكسار الداخلي كان يبدو من خلال تهداتها وضربات عصاها التي تدق الأرض بايقاع يتراوح بين الهدوء الرتيب والعصبية المباغتة.

إنها ما تزال متينة البنيان، وناضرة. تلوح في عيني جميلة وشامخة كنجمة تتلألأ، رغم الاصابة التي ضربت عقلها وجسمها. كانت غبطتي بلا حدود وأنا أراها تغادر فراشها وتتموج بيننا ثم وهي تجهز نفسها لزيارة قبر خالي في يوم الأربعين.

قبل يوم الزيارة ذهبت مع ابن عمي إلى سفح الكرمل القريب، قطعنا حزمة كبيرة من اغصان الريحان واثناء العودة اشتريت أوقية بخور أبيض.

مع الفجر كنا نتوجه إلى المقبرة. وإذ سألتها عن اخوتي قالت بأنهم سيتبعوننا مع شروق الشمس. كانت تتكىء علي وعلى عصاها والمدينة لم تستيقظ بعد إلا من باعة الحليب وعربات الخضار المتجهة إلى السوق عبر شارع الحنطور المحاذي للبحر.

تحت رطوبة الصباح الهابطة على المدينة والبحر وغابات الكرمل، راحت تحدثني حديثاً غريباً عن شجر الريحان وأرواح الموتى ومعنى زيارة القبور في هذه الاوقات المبكرة.

حكت لي عن رائحة الريحان التي تنعش روح الشهيد فتستيقظ من نومها وتخرج لترفرف فوق القبر، وسألتها عن مخدع الروح الذي تنام فيه، فقالت بعد أن تعود من حساب العقاب والثواب تنام في التراب قرب الميت لتؤانسه ثم تروي له ما حدث معها في حضرة الملائكة، وعندما يشعر بالحزن والملل تخرج به إلى الفضاء والريح تنزهه ثم تعوّد به إلى القبر، وفي مواسم الاعياد والزيارات تستنشق له رائحة الريحان والزهور ليظل منتعشاً.

وهي تروي لي هذه الاساطير كان يخيل لي ان الموتى لا يموتون. فقط ينامون نوماً طويلاً في اماكن بعيدة عنّا تحت الأرض.

وعندما سألتها إذا كان جميع الموتى يعيشون تحت الأرض، قالت بثقة: لا. الشهداء وحدهم يا ابني، انهم احياء ابداً وقد فضلهم الله على العالمين جميعاً. الاحياء والاموات.

أنا لا أحب رائحة الريحان، وأنا احمله اشعر برائحة الموت. انه يضمخني بعبق كئيب لكأنني ميت وأنا أسير. حتى وأنا أقطعه من غياضه في الكرمل كان يخيل إلي انه ينمو ويعيش على أضرحة القبور. انه يذكرني بالموتى وغسلهم ورائحة البخور والصلوات والجنائز.

كنت أتصوّر أن سفوح جبال الكرمل كلها قبور ومدافن من عصور قديمة من كثافة حجم الريحان، وانطلقت امي تتحدث عن ارضنا وبلادنا التي غطتها الدماء من زمن داوود وجوليات حتى الصليبيين.

وعلى غير انتظار روت شيئاً مدهشاً وغامضاً عن رحلة الروح التي عبرت من جسد جوليات إلى القسام وعبد القادر الحسيني ثم تقمصت الكولونيل محمد.

يبدو أن الحياة والموت يتساويان في رأسها، فهي لا تريد ان تصدق أن اخاها، الذي تماثل في تفكيرها مع الإله الحي، قد تحول إلى تراب بعد موته. من أجل ذلك استفاضت، ونحن نستريح قبل وصولنا إلى المقبرة، في الحديث

عن الروح القلقة التي لا تهدأ. الروح التي تتقمص جسم بومة لانني تنعب فوق الضريح منذ الغروب حتى شروق الشمس، والتي ستراها فوق الصندوق الحجري لقبر خالي.

إذ دخلنا بوابة المقبرة نبهتني أن أقرأ الفاتحة ثم تمتمت باسم الرحمن، وقرأت الفاتحة فطارت البومة عن حافة أحد القبور، ووقفت على الهلال النحاسي لرأس قبة أحد الاولياء وراحت تنعب. وقالت أمي بعد ان انتهيت من قراءة الفاتحة: أرأيتها! انظر إلى ريشها الرمادي والاحمر. الرمادي يشير للموت والاحمر للدم. تلك هي بومة الثأر. انها توقظهم حتى لا ينسوا الدماء. دماءهم المغدورة.

بغتة وضعت يدها على عضدي: تلك هي روح محمد التي ستدخل فيك يوماً!

قالت ذلك ونحن نحاذي القبر الأبيض. مسحت الضريح وقبلته، ثم ندهت بي أن أجمع الحطب لاشعال النار للبخور بينما باشرت بغرس اغصان الريحان حول القبر.

اتقدت النار. قالت: ابحث عن المجمرة وضع الجمرات فيها.

كانت تطوق الضريح بشجر الريحان وهي جاثية على ركبة واحدة والساق الأخرى المصابة ممددة على التراب. وأنا منهمك بإيقاد الجمرات، سمعتها تناجيه وتعاتبه على موته وعدم احترامه اثناء القتال لكأنه حي الآن ويسمعها. ناولتها المجمرة فأخذت حفنة بخور وذرّتها فوق الجمرات ففجت الروائح وانعقد الدخان في الفضاء. قالت أمي: هذه الروائح تنعش الروح فتقوم، وإذا كانت في السماء تهبط على اجنحة الروائح. ثم مدت يدها نحوي وقالت: تعال قبلّ هذا القبر واقسم امامه انك ستكمل طريقه وتحمل بندقيته التي خبأتها لك في الحديقة. تعال. هيّا.

جثوت أمام الضريح وبدأت أردد بارتعاش كلمات القسم التي انطلقت من فمها كآيات.

كنت أتمتم وراءها ببلاهة في مرتبك أمام هذا المشهد. كنت خائفاً أرتعد في اعماقي من برودة الفجر التي اختلطت مع حكايات أمي عن الموت والثأر والبومة والروح الهائمة. وإذ أبتدأت صلواتها وأدعيتها اجتاحت بدني موجة من الرعشات. كانت تمسّد حجارة القبر وتمسح وجهها به، وهي تبارك الروح التقية التي ذهبت إلى السماء طاهرة ومقدسة، ثم عادت إلى الجسد لتخبره بأن الله راضٍ عنه. ثم قرأت آية «ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً...» وبعد أن اكملت الآية همست له: كان لك يا حبيبي اسوة بشهداء بدر والخندق وأصحاب رسول الله الذين قضوا في سبيل الاسلام. لقد بدأت تهتاج وازدادت حركاتها عصبية فَعَلا نواحها وندبها. كانت واقعة تحت سطوة أحاسيس غريبة ونوبات فككت على ما يبدو توازنها العقلي؛ وتحت تأثير هذه الحالة راحت تصيح بصوت عال: آه. آه. يا محمد يا زينة شباب فلسطين. نحن لن ننساك يا حبيبي. الدم لا يصير ماء. ثوبك الدامي وبارودتك عندي. خبيتها للشبل اللي راح يوخد بتارك. دمك معلق في رقبتنا يا غالي. معلق على الاشجار وعلى الاحجار وعلى جناح الطير الطاير فوق البلاد. آه. يا حسرة قلبي عليك يا غالي يا نسر الجبال ويا سبع الفلا.

كانت ترش البخور على الجمرات فتؤج الروائح؛ وكانت الرائحة تزيد هياجها. وتحت تأثير انفعالاتها جذبتني اليها وضمتني إلى صدرها وراحت تهذي وأنا ارتعد بين ذراعيها: اياك ان تنسى. دمه برقبتك. إذا نسيت لن تكون من ظهري ولا من دمي. إذا نسيت سيقع عليك غضب السماء والأرض. ستلعنك السماء وتقتلع عينيك بومة الثأر. يا نافذ كن قدّ التحمل في يوم الصعاب. إذا نسيت يا نافذ أنت واخوتك استباحوا أرضنا وعرضنا إلى يوم القيامة. آخ. آخ. يا محمد صرنا يتامى بعدك. البيوت هدموها والحقول حرقوها. الأرض

والسما عم تبكي على الصبايا المتل ورد الكرمل. الصبايا اللي سبوهن اليهود واغتصبوهن..

وابتدأت تضرب الأرض بيديها: قم يا زين الرجال من قبرك. قم وشوف. آي وين الرجال؟ وين النخوة؟ وين الدم؟ الدم ينادي من قبور الشهداء. دم القسام ودم عبد القادر ودمك يا محمد. قوموا يا شهدا فلسطين. البسوا قصان الدم وانشروا الرايات الحمرا فوق تلال فلسطين الجريحة. آخ. آخ. آخ. آخ.

أصوات ندبها التي اختزنتها خلال اربعين يوماً تجاوبت كموجات فجائعية، مجنونة في كل أرجاء المقبرة. كانت الشمس قد اشرقت، وحضر اخوتي والجيران. وكانت امي قد دخلت طوراً شبيهاً بأطوار الجنون والهستيريا، وراحت تمزق ثيابها وتنتف شعرها وتمرغه بتراب المقبرة. أسرع الاهل والنسوة وطوقوها: اهدئي يا ام نافذ اهدئي. هذا حرام يا مريم. فلسطين ومحمد لا يحييهما البكاء.

كنت أرتعد من خوفي وحزني. أنا واخوتي انخرطنا في البكاء ونحن نرى أمّنا شبه عارية وممرغة بالتراب. بدأت تزغرد. هدأتها النسوة: من أجل روح الشهيد كفّي. هيا انهضي. من أجل محمد والشهدا قومي. النساء زغردن مع أمي: ويها. ويا الشهيد السامع بقبرك. ويها. ويا فلسطين الناهضة حولك. ويها. ونحنا بنات وشباب يفلسطين بعدك. ويها. حلفنا بالأرض والدم والنبي المختار تاناخد بتارك.

تماوجت الزغردات من افواه عشرات النساء القائمات حول أمي بين قبور الشهداء. زغاريد رددتها بقوة الاعصار أودية وهضاب الكرمل فتمددت آخذة معها عاصفة الألم والشقاء، والدموع التي سالت فوق الوجوه الحزينة. فجأة نهضت أمي. استعادت قوتها وانجلى حزنها. على وجهها الذي كان ممرغاً بالدمع والتراب انعكست اشعة الشمس، فضاء الوجه وغمرته هالة من السكينة والسلام الروحي.

الموت.

داهمني وأنا على أبواب الحياة. وأنا ما زلت غرّاً عكّر بحار أحلامي، وألقى على بصري المجامح إلى ما وراء الأفق، ظلالاً كثيفة من السواد. بعد أن تنام الأسرة أستيقظ داخل الليل. صوت البحر يأتي كطيور خائفة. الأشياء الغامضة في الخارج وصدى الانفجارات، كلها كانت ترمي في أعماقي فزعاً وهولاً لا أستطيع ادراكه.

كانوا يتحدثون عن الاحياء العربية واليهودية في بيتنا والمدرسة. الاحياء المفصولة والمغلقة والمتاريس والغارات التي يقوم بها اليهود على الاحياء العربية وغارات مجاهدي الشعب. وفي ذلك الوقت انتشرت شائعات عن نوايا الانكليز في مغادرة البلاد وانهاء الانتداب.

وفي ذلك الوقت كنت أشعر أنني اترنح على سطح زورق في عرض البحر، في رأسي احلام وصبوات عن السفر نحو بلاد بعيدة، الوان وصور حول الحب واللعب والحرية والتجوّل في الشوارع والحدائق والمدن. مدن فلسطين ومدن العالم، لكن عالمي كان ضيقاً ومحدوداً بين البيت والمدرسة وأسواق حيّنا الصغير. داخل هذا العالم الضيق همدت الاحلام واستكانت. ومع تفاقم الحالة والتوتر في البلاد بدؤوا يمنعوننا من الخروج والذهاب إلى المدرسة والأسواق. كانت المدينة تغلق مع غروب الشمس وينكفيء السكان إلى منازلهم. كنّا في قلب الرعب.

كانت منظمة الارغون اليهودية قد بدأت حملة تفجير القنابل في مناطق التجمعات السكانية والأسواق لابادة العرب وارغامهم على الهجرة.

إنني اتذكر ليلة تموز الرهيبة. الليلة التي فجر فيها اليهود عشرات القنابل في حيّنا وأدت إلى قتل وجرح أكثر من مئتي امرأة وطفل وعجوز من سكان المدينة. استيقظنا على أصوات الانفجارات في السوق والساحات وداخل المنازل الآمنة. كان الدوي يختلط بأصوات الرعب والهلع، وكان الناس يتدافعون ويتصادمون ويسقطون، بينما كانت الشظايا تمزق وجوههم وصدورهم وارجلهم فيهوون على

الارصفة وفوق النفايات وتحت الجدران . وهناك كانوا يختلجون بدمائهم اختلاج طيور فاجأها القتل وهي نائمة . كنت في حضن أمي ارتجف من الفزع ، وكان اخوتي يجرون داخل البيت ويزقون كالفئران مندفعين تحت الأسرة والكراسي ونحو الزوايا .

وصرخت الام : لا تخافوا يا أولاد . اهدؤوا يا روحي . الله يلعن أبو الانكليز واللي جابهم على بلادنا . لولاهم اليهود كانوا مثل الكلاب . واندفعت تحجل بقدم واحدة لتلمّ اخوتي وتطوقهم شبيه دجاجة داهم صغارها حدأة .

كانت وجوه البنات في لون الشمع . اخواي الآخران كانا يرتجفان ويتصببان عرقاً وهما يبولان في ثيابهما .

وابتدأ رشيد البالغ من العمر عشر سنوات يرتعش ويصرخ : ماما . اليهود سيذبحوننا . لماذا لا نذهب ونختبئ في البئر !

وقالت أمي : لا تخف يا حبيبي . اليهود خوافون . يضربون ويهربون . أهدأ يا حبيبي أهدأ . كنا حولها ، وبين ذراعيها ، وتحت فستانها . وقالت اختي سامية مؤكدة ما قاله رشيد : ماما . البير أكثر أماناً من هنا .

وردت أمي وهي تمسح شعر اختي وتضمها إلى صدرها : لا . لا . يا حبيبتي إذا وقعت علينا قنبلة ونحن في البئر نموت جميعاً . أنا معكم يا قلبي وهالحين يوصل ابوكم من الشغل . كنا مكوّمين في الغرفة المعاكسة لجهة الانفجارات ، في الزاوية الغربية ، نحتمي بالديوان والكراسي وصندوق عرس أمي الكبير . وفي غمرة الاصوات التي تأتي من الخارج والدوي والهلع الذي اصابنا جميعاً ، طلبت امي ان نجمع متاع البيت من الاخشاب والكراسي والطاولات ونضعها وراء الأبواب كمتاريس ، وزحفت هي من بيننا وانهمكت في اغلاق النوافذ وإحكام الابواب وهي تردد : آه . آه . لو كان خالكم الكولونيل ما زال حياً ! بعد ما مات صار اليهود يذبحوننا في بيوتنا .

●

في الصباح حضر أبي من القدس. كان مهلوعاً ومغموماً. بعد أن اطمأن علينا حمد الله وشكره لسلامتنا. روت له أمي ما حدث. كنا حوله نعاتبه على غيابه وهو يطوقنا ويداعبنا شاعراً بوطأة الذنب والتأنيب. وقالت أمي: هذه الحالة ما عادت تطاق. اترك العمل عند هؤلاء الانكليز الكلاب. يلعن أبوها اللقمة المغمسة بالدم. أولادنا اغلى من كل مال الدنيا. تصوّر لو انك عدت ولقيت البيت ركاماً واطفالك موتى!

وقالت اختي الصغيرة: بابا. نحن لا نريدك أن تتركنا وتسافر بعد الآن.

وقال أخي ياسين: لو كنت معنا اليهود يخافون منك ولا يذبحوننا.

هيأنا طعام الفطور وجلسنا نأكل. حضور أبي اعطانا دفقة أمان. تحدث والدي عن الأخبار السيئة التي سمعها من الركاب في القطار. اليهود يريدون كل البلاد وعينهم على حيفا لأنها مرفأ وانهم سيهاجمون الانكليز إذا تدخلوا لحماية العرب.

وردت أمي: الانكليز سيسلمون جميع مواقعهم لليهود قبل انسحابهم.

وقال أبي بأن البلاد تغلي وتهدد بالانفجار والناس خائفة وتفكر بالهجرة بعد ضرب يافا وحيفا والقدس، والثوار في الجبال تشتتوا وهم محاصرون ويعانون من نقص السلاح والذخيرة. وقد بدأت عصابات اليهود بتدمير السكك الحديدية وتفجير القطارات وأنابيب النفط.

في الليل سمعت أبي يروي لأمي بأن قطاره سيحمل بأسلحة انكليزية لتسلّم لليهود في منطقة العفولة تحت حماية ضابط مخابرات بريطاني متعاون مع الصهاينة، وعندما سألته ماذا سيفعل في هذه الحالة، قال: لن أقود القطار. منذ الآن سأترك العمل وأستقيل.

□٥□

الزلزال.

كانت الأرض فوقه تترنح وتميد، مقذوفة ومتصادمة عبر الاتجاهات الأربعة، وكان الشعب قد أصيب بحالة من الدوار وضياع بوصلة الرياح.

كانت المباغتة تأتي كهزات أرضية متقطعة، قطباها الانكليز المتواطئون، واليهود المسلحون حتى الاسنان لاجتياح فلسطين، والمدربون على ذلك سياسياً وعسكرياً منذ نصف قرن. وفي ذلك الوقت كان العرب ضعافاً ومتقسمين وبلا سلاح. كانوا يشبهون قبائل زراعية آمنة في أرضها داهمها الغزاة من كل حدب وصوب.

تحت هذه الغمرة الجائحة، دفاعاً عن الأرض والوطن، عمت الاضرابات والمظاهرات كل انحاء البلاد، وكانت العمليات العسكرية لمجموعات الجهاد المقدس في الريف والمدن تتركز على معسكرات الجيش البريطاني، وبعض المستعمرات اليهودية، وشجع السكان والمجاهدين تسلل اعداد من مقاتلي البلاد العربية المجاورة إلى داخل فلسطين.

وفي الأفق لاحت بشائر التقسيم برعاية وتحريض بريطانيا، في الوقت الذي تفاقمت فيه الهجرات اليهودية غير الشرعية تحت سمع وبصر دولة الانتداب بهدف الاجتياح وتهويد البلاد.

لقد حاولت بريطانيا احتواء الثورة التي عمت وانتشرت كالنيران، ولعبت مع القيادة الوطنية لعبة المفاوضات وبذلك استطاعت جرّها إلى هذا المستنقع. وخلال ذلك صدر من الحكومة البريطانية بيان رسمي يلغي مشروع التقسيم لأنه غير عملي. ورغم هذه المراوغة والتواطؤ استمرت الاضطرابات واستمرت لعبة المفاوضات. لقد حدد العرب مطالبهم في: الاستقلال السياسي، والتخلي عن وعد بلفور في الوطن القومي اليهودي، وانهاء الانتداب. وبعد صدور الكتاب الأبيض الذي حدد الهجرة اليهودية إلى فلسطين، استبشر العرب خيراً، غير أن دولة

الانتداب ما لبث ان نقضت ذلك وتدفقت الهجرة اليهودية، واعلن قادة العصابات الصهيونية ان فلسطين ستكون دولة يهودية، واليهود لن يستغنوا عن أي قسم منها حتى ولو كان في قمم الجبال أو اعماق البحار.

وفي الوقت الذي كانت فيه فرق الكوماندوس والمظليين اليهود تتدرب بقيادة رجل المخابرات البريطانية تشارلز* وينجت لدفعها بعد رحيل الانكليز إلى المواقع الاستراتيجية ومجابهة الثوار. كان العسكر الانكليزي يطارد أي عربي يحمل السلاح فيعدمه أو يزج به في السجن.

●

الشمس تميل نحو الغروب كسيفة. والثورة تهتز تحت ريح الانقسام والمساومات كأوراق الخريف. والقيادة المتواطئة والانتهازية تنوس بين القتال والمفاوضات السرية والعلنية. وفي ذلك الوقت المهتز والمظلم، كان الشعب شعوباً وقبائل، وكان اعزل ومشتتاً ومغلوباً على امره.

□٦□

الحوار كان حاداً في تلك الليلة داخل الأسرة. تطور حتى وصل حافة الشجار.

كان قرار الوالد ان نرحل بعد أن بدأت قوافل المهاجرين تترك منازلها وأراضيها وتتجه نحو البلاد العربية المجاورة.

أبي وأمي كانا شبه متفقين على الرحيل إلى عينا بوس وترك حيفا إلى الأبد بعد أن استقال الأب من عمله.

وكان واضحاً أن المعركة غير متكافئة رغم الاضطرابات والاشتباكات التي تقوم بين الفدائيين وعصابات اليهود والانكليز.

اقترح والدي الهجرة عن طريق البحر إلى لبنان، وبذلك يتاح لنا ان نحمل معنا الاثاث الغالي، كما أن طريق البحر أكثر اماناً وراحة للاطفال والأم الكسيحة. واعترضت أمي قائلة بأن هناك شائعات عن اغراق بواخر المهاجرين في عرض البحر تقوم بها الهاغاناه. وقال الأب بأنه يعرف بعض الضباط الانكليز وعن طريقهم يمكن تأمين سلامة السفر.

وعندما اعترضت الام على أن الانكليز لا يؤمن جانبهم، قال أبي بأن اليهود لا يمانعون في هجرة الناس وربما كانوا متفاهمين مع الانكليز على ذلك.

وكعادتها حاولت أمي أن تفلسف المسألة سياسياً فقالت: طبعاً. المهم ان تفرغ فلسطين من العرب فيأخذها اليهود لقمة سائغة.

ورد والدي: طيب. هل نستطيع نحن أن نمنع ذلك؟ الا ترين الشعب كيف ينجو من الموت ويهرب!

وفي لحظة غريبة ركب أمي عناد مفاجئ: والله سوف لن نخرج من هذا البيت. هذا بيتنا وهذه بلادنا ولن نتركها وليكن ما يكون.

كنا منهمكين في تجهيز الحقائب وجمع الاثاث الخفيف وترتيبه داخل العلب والحقائب والصناديق . لم يصدق أبي ونحن ما قالته الأم . اعتقدنا انها غير جادّة وانها تجتاز إحدى نوباتها الوطنية . وعندما طلبت منا أن نكفّ عن جمع الاثاث ، قال ابي : مريم هل جننت؟ الا تدركين ماذا يعني البقاء هنا؟

– هاه . قل لي ماذا سنفعل في البلاد الغربية ! سنحيا حياة ذليلة كحياة الشحاذين . وماذا سيقول الناس عنا هناك ! انظروا إليهم لقد تركوا بيوتهم وارضهم وباعوا بلادهم لليهود .

وتوقف أبي ونظر إلى أمي باندهاش : ءأنت جادّة فيما تقولين؟

– نعم جادّة . ولن نرحل .

– ولكن هل نحن أفضل من اهلنا . كوني عاقلة يا امرأة . الا ترين ماذا يفعل هؤلاء اليهود المتعصبون في المدن التي يدخلونها . انهم يحرقون البيوت ويذبحون المذنب والبريء . من ينجينا من قنابلهم وسكاكينهم ! بعد ان نصل لبنان نذهب إلى بيتنا في عينا بوس .

صاحت أمي : تعال يا نافذ ساعدني على النهوض . اتجهت نحو الأمتعة والحقائب وراحت تفرغها وترمي بها نحو الأرض والأسرة . كانت حركاتها عصبية وخلال انهماكها بالأثاث كانت تنثر شتائمها على اليهود وعلى العرب الذين تخلوا عن أرض محمد والمسيح فتخلى الله عنهم .

وفي تلك الليلة حاول أبي اقناعها بالرحيل لأن البقاء سيؤدي إلى الهلاك . لكن تلك الأم العنيدة عناد الصخرة ، كانت ترفض السفر باصرار ، وهددت بأنها إذا ارغمت على ذلك فستحرق البيت حتى لا يسكنه هؤلاء اللقطاء الذين جاؤوا من وراء البحار وهم لا يعرفون آباءهم ولا أمهاتهم ، أولئك الذين وسمتهم بأنهم ولدوا سفاحاً في شوارع وساحات البلاد الاجنبية .

استمرت ، وهي تعيد ترتيب الاثاث ، في البربرة عن الشرف والكرامة والشجاعة المفقودة . وقالت بأن الذين يتخلون عن البيت والأرض لا يهمهم ان يبيعوا الشرف والعرض .

كان أبي يترنح بين الغضب والمرارة. وكان يدخن ويزفر وهو ينظر عاجزاً أمام هذه المرأة التي وضعت عقلها خارج الواقع الصلب والجارح. حاولنا أنا واخوتي ثنيها عن عزمها وافضينا برغبتنا في الرحيل اسوة بالناس الذين رحلوا، لكنها اخرستنا قائلة: انتم صغار لا تفقهون شيئاً. لو رحلنا ففي المستقبل ستلعوننا.

شرح أبي كمحاولة أخيرة بأن لا جدوى من البقاء، وإذا ما احتل اليهود الحي فسيعرفون ان الكولونيل محمد هو من اسرتنا، وهكذا فلن ننجو من المذبحة، ثم تحدث عن وضع البلاد وقلة السلاح وتشتت الثوار. وصرخت أمي: دعك من هذا الكلام. أنت لا يحق لك أن تتحدث لا عن الكولونيل محمد ولا عن المجاهدين الذين يملؤون أحراش وكهوف الكرمل. ثم أنت ضد الثورة والمجاهدين فلماذا تتحدث عنهم؟

ولأول مرة ينتفض الوالد دفاعاً عن نفسه: أنت يا امرأة تضعينني مع الخونة؟ لماذا؟ عمري كله قضيته في الشقاء من أجل العائلة. من أين تعيش هذه الذراري لولا تعبي؟ انظري إلى بيتك المؤثث والمليء. ثم انت ماذا قدمت لهذا البيت؟ انت لست قاسية بل حقودة. قلبك أسود علي لاعتقادك انني لا أحب وطني وبلادي. من أجل من عملت مع الانكليز؟ اليس بناء الأسرة جزءاً من محبة وبناء الوطن؟

وقالت أمي باستهزاء: كاليهود كنت تجري وراء المال. لقد أفنيت عمرك تلهث وراءه.

– اسكتي يا امرأة. عليك ان تستحي من هذا الكلام العيب.

لا بد أن أمي كانت مستفزة على نحو ما. ولم تكن الحالة الذاتية وحدها السبب. كانت كراهيتها وشراستها تندفعان كشيطان محبوس وهي تندد بالرجل – الزوج عندما قالت. انت لست للسيف ولا للضيف ولا لغدرات الزمان. كثير الحركة قليل الفعل. الله يلعن اليوم الذي تزوجتك فيه.

كان واضحاً أن الزلزال الذي ضرب الأرض وصل النفوس. فالعائلة التي كانت آمنة وراضية أوقات السلم، هي ذي الآن في زمن الحرب تتشظى. كانت الخلية تنقسم الآن على نفسها متفسخة بفعل هذا الجرثوم الذي اندفع عميقاً داخل كريات الدم.

استمرت الأم في هجومها واتهاماتها. ووردت على كلمات العيب والحياء بقسوة: العيب وقلة الحياء والشرف يمشيان في دماء اشباه الرجال الذين تقاعسوا ولم يكملوا طريق الشهيد محمد. ثم صرخت بفحش المرأة التي كسرت على زوجها: وحياة النبي محمد، النساء أفضل منكم. ولو كان السلاح بأيديهن لما ضاعت البلاد ولا تشرّدت العباد.

●

حدث ذلك كبرق أو كابوس.

اندفع والدي نحو أمي ليسكتها ويوقف سيل كلماتها النابية واضعاً كفه على فمها، لكنها هوت على الأرض لسرعة الاندفاعة. وهي ممددة لعنت أبي وشتمته: خنزير. يهودي. وهوى على وجهها بصفعة قوية.

وَلْوَلْنا وناديْنا الجيران. اندفعتُ نحو أمي لأردّ عنها الصفعات. كانت تصرخ وتسب، موقدة أكثر نيران الأب التي اندفعت من اعماقه وكأنها استجابة ثأر لتاريخ طويل من الاهانات والاذلال والتحقير.

عندما صفعها للمرة الثانية قال: لم اضربك في حياتي. لكنك لم تتركي مناسبة إلا وعرّضت فيّ حتى أمام الناس. صورتني أنني رجل بلا وطنية ولا شرف، وانني تخليت عن أولادي وبلادي واعمل لصالح الاجانب. حتى أولادي أرضعتهم حليب كراهيتي. امرأة قاصرة ومقعدة ومع ذلك لا تخشين الله ولا تحترمين زوجك. لم يقصر الله معك إذ كسرك لأن روح الشيطان تمشي في دمك.

كان يقف قربها وهي تحت مرمى ذراعه. من خلال دموعها وكرامتها التي جرحت تحت قبضة زوج كانت تطؤه دائماً قالت: آه يا جبان. تستقوي على امرأة قاصرة بينما الانكليز واليهود يركبونك. آه. يا حبيبي يا محمد. ليتني متّ معك في وادي النسناس!

وصرخ الرجل الجريح: سأظل اضربك حتى تصمتي أيتها الأفعى. عليك وعلى جنسك اللعنة إلى أبد الدهر. ورفع قبضته إلى اعلى. كانت قبضته ستهوى علي وأنا اغطيها بجسدي وصرخت: دخيلك يا بابا. دخيلك. لا تضرب ماما. أبوس حذاءك. دعها. انها مريضة. وصرخ بي: أيها الكلب. انهض. أهذه أم تستحق الحماية؟

وحاول جذبي بعيداً عنها. وصرخ اخوتي برعب: بابا. بابا. دع أمنا. وقلت ضارعاً: أحلفك بكل ما تؤمن به ألا تضربها.

وقالت أمي بغمغمة دامعة: استحلفه بالسترليني هذا هو إلهه.

وصحت بها: أمي. اسكتي. برحمة خالي محمد كفّي عن الكلام.

وقال الوالد وهو يبتعد ويتميز غيظاً وحنقاً:

يا ابنة الأبالسة. والله سأتركك تحت رحمة اليهود وحيدة ولن تسمعي بي بعد اليوم.

كانت اختي سامية تنادي الجيران من الحديقة، بينما انخرط بقية اخوتي في العويل.

وحضر الجيران فرأوها مكومة في زاوية الغرفة تنهنه وتمسح دموعها.

استدار أبي إلى غرفة النوم وهو يستغفر الرب ويخزي الشيطان والنساء، لاعناً اليوم الذي ابتلي فيه بهذه الفرعونة.

الهجوم .

بدأ على حيفا في الاسبوع الأخير من نيسان بعد قرار مشروع التقسيم للاستيلاء على المدن الرئيسية وطرد العرب منها بالقوة .

عصابة الهاغاناه هي التي قادت الهجوم . مركزت مدفعية الهاون على جبل الكرمل ، واشترطت قبل بدء الهجوم هدنة انذار تنصّ على النزع الكامل للسلاح من أيدي الثوار والمجاهدين خلال أربع وعشرين ساعة ، ثم السماح لقواتها بتفتيش الاحياء العربية لجمع السلاح مع رفع الحواجز من الشوارع وتسليم الثوار المسلحين ، واشراف رجال الهاغاناه على الأمن في منطقة حيفا .

كان اليهود يسيطرون على جميع النقاط والمواقع الاستراتيجية في المدينة وجبال الكرمل عدا الميناء ، حيث تتمركز قوات البحرية البريطانية . وعندما رفض المجاهدون شروط الهدنة الذليلة والتي تساوي الموت والاستسلام ، ابتدأت المعركة التي زجّ فيها اليهود خمسة عشر الف جندي من قواتهم .

وفي الوقت الذي اذاع فيه الجنرال البريطاني ستوكويل قائد منطقة حيفا ، انه المسؤول عن أمن منطقة حيفا ، وأن الانكليز لن يغادروها حتى أول آب بعد الانسحاب النهائي لقوات الانتداب ، كان البريطانيون يدبرون خديعة بالتواطؤ مع اليهود في المدينة . لقد طلب الجنرال ستوكويل من اللجنة العربية العليا أن تتريث بدخول قوات شكيب وهاب إلى حيفا لحماية العرب منعاً لاصطدامها بالقوات الانكليزية ، وفي الوقت الذي أخّروا دخول القوات العربية كانوا يهيئون انسحابهم سراً قبل بدء المعركة بيوم واحد ، مفسحين المجال لليهود لأخذ مبادرة الهجوم ضد الثوار العرب والاحياء العربية العزلاء من كل حماية .

كان الجيش البريطاني يتفرج على المعركة ، عندما انصبت نيران خمسين مدفعاً من مدافع الهاون المركزة فوق جبال الكرمل على الأحياء العربية ، التي بدأت

منازلها ودورها واسواقها تتقوض فوق السكان تحت قصف شديد متواصل. وداخل المدينة التي يزلزلها القصف، خاض الثوار قتالاً ضارياً غير متكافئ بأعداد ضئيلة واسلحة قديمة، في مواجهة قوات كثيفة مسلحة بأحدث انواع الاسلحة. كان اليهود يتقدمون في شارع ستانتون وشارع الخوري بصعوبة شديدة أمام مقاومة الثوار وقتال الشوارع الضاري.

كانوا يهدفون عبر اندفاعهم إلى محطة سكة الحديد الواقعة وسط المدينة، للسيطرة على عقدة المواصلات.

وفي الشوارع والازقة والمنعطفات وتحت الانقاض كانت الجثث ملقاة، بينما المدينة تتقوض تحت عنف المدفعية التي تنصب عليها من اعالي الجبال. كانت حفنة من الثوار العرب من الحرس الوطني تناوش اليهود من شارع لشارع بأسلحتها القديمة من البرنو والمسدسات، وشهدت سكة الحديد معركة ضارية استولى فيها اليهود على المحطة ثم ما لبثوا أن رُدّوا على أعقابهم تاركين في ساحة المعركة أكثر من خمسين قتيلاً وجريحاً.

على جبهتين كان المقاومون العرب يعملون: جبهة القتال، وجبهة انقاذ الاطفال والنساء والعجائز. ابعد الهجوم المباغت الذي جاء قبل نهاية الانذار اليهودي. واندفع الاهالي من النساء والأطفال هارعين بذعر شديد للالتجاء إلى الكنائس والجوامع، اعتقاداً منهم انها أماكن مقدسة تحميهم ولن يهاجمها اليهود. وإذ مالت كفة المعركة لصالح الهاغاناه وابتدأت تقتحم وتجتاح الاحياء العربية، اندفعت مفرزة يهودية وهاجمت كنيسة الموارنة في الحي المسيحي.

كان الاطفال والنساء والشيوخ متراصين داخل الكنيسة وهم يرتعدون فزعاً عندما فاجأتهم فصيلة الهاغاناه وراحت تحصدهم بالرشاشات حصاد طيور محبوسة في قفص. كان الجنود اليهود يطلقون النار وهم يقهقهون صارخين: عرب ما فيه بعد اليوم في فلسطين. عرب يذهبون إلى الصحراء او القبر.

أكثر من مئتي عربي اخترق رؤوسهم وقلوبهم الرصاص الاسرائيلي تحت جسد المسيح المصلوب وصور القديسين وايقونات مريم العذراء.

لقد تحولت أرض الكنيسة إلى بركة من الدم غاصت فيها اجساد راحت تختلج بدمائها وهي في نزعها الأخير.

كانت القوات الاسرائيلية تندفع ، بعد أن تحطمت المقاومة ، في كل انحاء حيفا . حتى المستشفيات لم تسلم من المذابح . ففي حمى الهجوم الوحشي وتحت سطوة شهوة القتل ، اندفعتْ مجموعة من المتعصبين اليهود المسلحين بالرشاشات والفؤوس الحادة إلى مستشفى حيفا المركزي وراحوا يطلقون النار ويذبحون العرب الجرحى بيلطاتهم المرهفة على مرأى ومسمع الاطباء الانكليز الذين فرّوا نحو اروقة وأقبية المستشفى خوفاً من المذبحة .

●

في تلك اللحظات الدامية والمأساوية ، والعرب يختلجون بدمائهم في مذبحة حيفا ، كانت دولة داوود تشق أسسها في أرض فلسطين الصلصالية . وكانت تلك الأسس التي ستمتد من صحراء النقب حتى البحر ، ومنْ خيانة العرب وتخاذلهم حتى حدود العواصم ، يُسقى إسمنتها بالدماء الحارّة وتُرصّ أرضها بالجماجم العربية سهلة القطع .

وفي ذلك الوقت الملعون ، كان كل شيء مستباحاً ورخيصاً ، وداخلاً في حساب المقايضة والربح والخسارة ، بدءاً من فساد الأسلحة والنفوس والخيانة ، وانتهاء بالشهداء المجانيين الذين لم يستر جسدهم كفن .

□٨□

مع ابتداء الهجوم المباغت والغادر على المدينة، حُسم الخلاف في الأسرة حول السفر.

كان الهياج والصراخ ينطلقان من حينا مختلطين بدويّ قنابل المدفعية التي تنز وتتساقط من اعالي الكرمل. وترددت أصوات عالية: إلى الميناء. إلى الميناء. كان هنالك أفراد من المجاهدين يندفعون إلى الدور والمنازل طالبين من الأهالي الاتجاه إلى المرفأ حيث تنتظر السفن والزوارق لنقل الاطفال والنساء والكهول إلى صور في لبنان. وداخل البيت كنا منهمكين في تجهيز بعض الأمتعة الخفيفة عندما دخل فدائيان لمساعدتنا في نقل اخوتي الصغار وأمي. وسألتهم أمي عن الأحوال فقال احدهما: كما ترين يا خالة. الحالة سيئة ونحن بين نارين: نار اليهود وتواطؤ الانكليز الأوباش. وسألت أمي ان كان عدد الثوار كبيراً، فقال الآخر: نحن بالعشرات وهم بالألوف. حيفا مطوقة والذبح بالعيال كذبح النعاج وجيش ستوكويل واقف يتفرج على المذبحة.

وقال أبي: حرب بلا أمل. اننا ضعاف ومنقسمون. وردّ الفدائي وهو ينقل الأمتعة إلى خارج البيت: يا عمّ لو كان هناك عرب وسلاح وذخيرة للعنّا أبوهم. يا عمي بتقاتل الدبابة بالبرنو وبفشك فاسد! بشرفي ما اخذوا شارع ستانتون إلا بخمسين قتيلاً.

ودعت أمي: الله ينصركم يا ابني على هؤلاء الكفار. إلهي يكون في عونكم وينجيكم من هذه النار.

لسان أمي الطويل وولعها بالثرثرة عن اخيها البطل الذي لم ينجب الزمان مثله كما تعتقد، أوشكا على الاندفاع عندما سألت الفدائي ان كان يتذكر معركة حسبة المدار التي انتصر فيها الكولونيل محمد عبد الفتاح، ثم جاء الانكليز واستعادوها بالدبابات وسلموها لليهود فيما بعد. لكن الفدائي أجاب بأنه متطوع

جديد في حزب الدفاع العربي وأنه من قرية ام العمد التي تبعد أكثر من عشرين كيلو متراً عن حيفا.

في الشوارع والساحات والأزقة، كان الشعب يتدافع ويركض حاملاً خفيف الأمتعة والأثاث باتجاه المرفأ وطريق عكا البرّي المودي الى نهاريا والناقورة.

عندما وصلنا إلى الميناء فوجئنا بحشد من آلاف الاطفال والنساء والعجائز يتناكبون ويتقذفون إلى البحر نحو السفن الراسية هناك.

خمسون ألفاً من الحيفاويين خرج من دياره وهام على وجه الشوارع والبراري والبحر في تلك الليلة والايام التي تلتها، بعد الانذار اليهودي ومجزرة يافا وسقوطها بيد الهاغاناه.

التقينا بأعمامي على رصيف المرفأ المختنق بالأهالي. كانوا مع عائلاتهم وأولادهم. لقد بدا صعباً سفر الجميع عن طريق البحر لأن السفن لم تكن تتسع، وكانت الأولوية للنساء والاطفال والمرضى. وتشاور والدي مع اعمامي ثم اتفقوا ان يسافر أبي مع العائلات والاطفال الصغار عن طريق البحر وأسافر انا مع اعمامي عن طريق البر ونلتقي في صور. حتى المغيب ونحن ننتظر وأبي منهمك في البحث عن الضابط البريطاني الذي يعرفه ليسهل سفر العائلة. مع الغروب صعدوا إلى السفينة بعد وداع ونحيب وتوصيات أمي لأعمامي بالحفاظ عليّ ورعايتي. طمأنت أمي بألا تخاف ولا تجزع لأنني ما عدت طفلاً وغداً نلتقي في صور. واتجهت مع أعمامي بسرعة إلى موقف سيارات عكا.

الخروج .

بدأ على شكل انقذاف اعمى بعد الهدنة وغبّ الاشاعات التي انتشرت كالنار عن زحف اليهود وعمليات الابادة الجماعية التي ترتكبها اشتيرن والهاغاناه. لم يكن أولئك يتورعون عن ذبح الاطفال، وتمزيق احشاء النساء الحوامل بالحراب، واغتصاب الصبايا الجميلات، وجرّ الاسرى بالسلاسل إلى معسكراتهم واحيائهم ليعرضوهم على شعبهم وهم يهزؤون منهم : هؤلاء هم عرب الصحراء الشجعان. العرب الذي غزوا العالم واقاموا امبراطورية محمد بالسيف والقتل. انظروا اليهم اليوم كيف أذلهم إله اسرائيل وحولهم إلى عبيد سيخدمونكم في مزارعكم وبيوتكم . هؤلاء الرعاة يعودون إلى اصلهم الأول مسخرين لكم كما قال الاله يهوه لنبيه يشوع يوم انتصر في اريحا وعاي وحاصور.

وفي المعسكرات والمستوطنات قرأ احبارهم من سفر يشوع : «تفعل بعاي وملكها كما فعلت بأريحا وملكها، غير أن غنيمتها وبهائمها تنهبونها لنفوسكم. وكان لما انتهى اسرائيل من من قتل جميع سكان عاي في الحقل وفي البرية حيث لحقوهم وسقطوا جميعاً بحد السيف. فكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجال ونساء اثني عشر ألفاً : جميع أهل عاي، وغنيمة تلك المدينة نهبها اسرائيل لأنفسهم. وأحرق يشوع عاي وجعلها تلاً أبدياً خراباً. وملك عاي علقه على الخشبة إلى وقت المساء، وعند غروب الشمس أمر يشوع فأنزلوا جثته عن الخشبة وطرحوها عند مدخل المدينة».

●

وعبر البر والبحر هام الشعب الخائف والحزين على وجهه. شيوخ وأطفال ونساء تدفقوا عبر ثغور الاردن وسوريا ولبنان، بعيداً عن الفتك الذي ابتدأ في طول البلاد وعرضها، مخلفين وراءهم البلاد التي تسبح الآن في دمائها.

كان الزمن صيفاً، وكان الخوف وطلب النجاة قبل عبور الحدود سحابة سوداء تخيم على النفوس التي تخلت عنها السماء والأرض.

وتحت سماء من الصهد والعطش والجوع والتعب، في السفوح الوعرة وشعاب الدروب ومجاري الانهار، تشتت الشعب شتات قطيع داهمته ذئاب مفترسة من كل فجٍّ عميق.

كان الأطفال يبكون والنساء يولولن بينما الشيوخ يندهون بالصبر واحتمال البلوى وهم يقرؤون ذكراً من آيات الله واحاديث الرسول، داعين الشعب ليشدّ عزيمته في اجتياز التيه وامتحان الله للانسان المؤمن في هذا الوقت الصعب.

ومن بين هذه الجموع التي نجت من المذابح، كانت تُسمع عبارات الغضب واللعنات على الانكليز واليهود والعرب الحكام والخونة، كما كانت عبارات الرحمة والتشهد ترتفع نحو السماء على أرواح الشهداء الابطال الذين قضوا في القسطل ويافا والقدس وباب الواد ومرج ابن عامر وحيفا وصفد.

كان الأقوياء يساعدون الضعفاء، ومن حمل طعاماً وماء اقتسمه مع الجياع والعطاش، وعندما يهوي المتعبون والمرضى يندفع الفتيان والرجال ليوكتوهم على اكتافهم: تشجعوا يا أخوتنا. تشجعوا. اتكلوا علينا وعلى الله. الحدود قريبة.

– سنموت قبل أن نبلغ الحدود.

– لا تخافوا. يد الله مع الجماعة.

– يا عمي. والله ما عاد فينا حيل.

– قولوا يا الله. اتكلوا على الذي لا يُتكل إلا عليه.

– آه. آه. شايفلكم انو الله ما عاد معانا. هالحين صفّ مع اليهود ونسينا.

– حرام يا عمي. حرام هاذا الكلام. هاذا كفر.

– كفر أم ايمان! كيف ينصرهم ويكسرنا ورسولنا قال: انتم خير أمة اخرجت للناس؟

– يا عمي. يبلوكم ليرى قوّة ايمانكم. أنا شايف انو ما عاد فيه ايمان بصدور العباد وهذا سبب كسرنا.

– آه. آه. والله الرسول وجماعته ما انتصروا بالايمان وحده. بالسيف يا عمي بالسيف أخذوا النصر. الله يرحم الشاعر اللي قال: السيف أصدق أنباء من الكتب.

– دعونا من هذه الفلسفات والفذلكات وخلونا بحالنا. الدهر حطّ علينا وهذا الزمن ليس لنا.

– لمين الزمان يا خالة؟

– الزمان للقوي. للي عندو سلاح وبنّ.

– خانونا الانكليز والعرب.

– وقيادتنا الملعونة لا تنسوها. والله. والله عبد القادر وهو جريح قطع الجبال والفيافي من الشام حتى وصل القسطل وعمل في اليهود عمايل ما عملها عنتر بن شداد في زمانو. لكن القيادة السياسية هي السبب في استشهاده. قيادة التفرقة والركض وراء الزعامة والمال والجاه.

– ووراء الالمان مرّة والانكليز مرات.

– كل هذه البلوى من المفتي وجماعته.

– لو كنا مع انفسنا ما صار اللي صار.

وما كانت الحوارات تنتهي ولا تأنيب الضمير ولا الشكاوى والتهم. كانت الكارثة بفداحتها قد أوصلت الناس إلى جحيم اليأس وأبواب العار في الوقت الذي كشفت فيه ظلام الاعماق الجريحة ومكامن العطب.

فوق الطريق الساحلي من حيفا إلى صور، كانت قوافل الباصات والشاحنات تعج بالناس والأمتعة، وعلى مناكب الطريق انتشر المشاة الهاربون وراحوا يلوّحون للسيارات والعربات التي تنوء حتى سطوحها بالبشر والاثاث. وعبر القرى والمزارع انتشرت اخبار مريعة عن زحف اليهود وتقدمهم ومذابح الأطفال واغتصاب النساء. كما فاضت الشائعات حول استسلام الثوار وخيانات العرب وتواطؤ المفتي والملك عبد الله والموافقة على التقسيم.

تحت سطوة هذه الأحوال المؤلمة، والشتات المفلت من عقاله، كان الخائفون والمجتاحون يطلقون صرخات: الأرض ولا العرض، بين عويل الصبايا العذراوات، ونواح العجائز الندابات. كان هؤلاء النسوة يهبن بالرجال لانقاذ الفتيات والحريم من اغتصاب اليهود وتلويث الشرف. كانت الحياة الشخصية وحياة العائلة، وانقاذ ما يمكن انقاذه دفاعاً عن النوع، تبدو وكأنها بذرة البقاء بعد انفراط عقد الوطن واجتياح الأرض.

كنا على أبواب الفجر والشاحنة تترنح بنا ونحن نستلقي داخل صندوقها المكشوف. ومن البحر كان يأتينا نسيم غربي رطب. ونحن نقترب من نهاريا.

كنت محشوراً بين الناس أستند إلى جدار الشاحنة قرب عمي صالح الذي كان يحدق طويلاً في السماء. بدت السماء عكرة وكأنها رشت بالغبار. بدا عمّي منقبضاً وساهماً بلحيته التي وخطها الشيب وجبينه المغضن وسنواته الخمسين التي زادتها أحداث الأسبوع الأخيرة عشر سنوات هرماً.

مع شروق الشمس تململ المتعبون والنيام فوق أمتعتهم، وقال عمي: انهضوا يا جماعة. قوموا شوفوا. والله في السماء يوجد شيء غريب.

وحركني: ولك نافذ ابن أخي. انظر معي انظر. أنا شايف الشمس كأنها مكسوفة.

النعاس والتعب وارتجاج صندوق السيارة اللعينة، أعيانا عبر هذا الطريق

المحفر والملتوي. ونظرنا إلى عمق السماء بعيون يغشاها النعاس والسهد. كانت الشمس مطوّقة بهالة من غبار يشبه زهر عباد الشمس.

وقال عمي سالم: آه. يا حسرتي حتى الشمس تبكي علينا. كان هو الآخر مرمياً في الزاوية يعاني مغصاً مزمناً من مرض الكولون.

أمامي كان يقعي عجوز هرم شبه أعمى تسيل من عينيه دموع متواصلة. كان طوال الطريق يتمتم أدعية وهذيانات حول الجحيم والجنة وعقوبات الرب للكفرة والمشركين، ويبشر بقرب القيامة ونهاية العالم لأن الاعور الدجال قد ظهر على صورة اله اليهود، وبظهوره الشيطاني سيظهر له عدوّه الرحماني وهو النبي الخضر الاخضر سيدي الرفاعي الذي سيرسله الله مع جنوده من بيت المقدس الشريف ليفني اليهود والعالم. عندما سمع عمي سالم وصالح يتحدثان عن كسوف الشمس، حوقل وبسمل وهو يمسح دموعه: هذه علامة من علامات القيامة وغضب الله. ابشروا بظهور سليل الرحمن وسيدّ الزمان والذي سيعيد إلى فلسطين مجد بني كنعان. الله أكبر والعزة لذي العزّة فالق السموات والأرض. وراح يقرأ من سورة يوسف: يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين.

اصابتني رهبة وأنا اسمع الشيخ يهذي، فالتحمت أكثر بعمي وأنا ارتعش. سألني ان كنت أشعر بالبرد فقلت: لا. انني خائف من هذا. وأشرت إلى الشيخ الذي أخرج مسبحته الصفراء الطويلة وراح يطقطق حباتها وهو يهز رأسه كالدراويش إلى الامام والوراء. وقال عمي: لا تخف هذا رجل مسكين وممسوس ورفاعي. وشرح لي أموراً غريبة عن طريقة الرفاعية المتصوفة وحلقات ذكرهم وضرب اجسادهم بالسكاكين والسفافيد وهم يصرخون: مدد يا رفاعي مدد. وعندما سألته إن كانوا يموتون من الطعن نفى ذلك: قوّة ارادتهم تفوق طاقة الجسد. لقد تدربوا على تجاوز الموت بقوة الروح، الروح هي الاصل والجسد هو الفرع. الروح هي الرفاعي. وشرح لي، وأنا لا أكاد افهم، عن الطقوس الخاصة والسرّية التي يقوم بها الرفاعيون في حفلات الزار والطعن واظهار المعجزات

الغربية من خلال قوة الروح والارادة ، وكيف ان هذه الطقوس تتم في جوّ اسطوري غريب تخيم عليه رائحة البخور والصلوات وأصوات الطبلة والمزهر وايحاءات السيد الأكبر الذي يشرف ويقود الحضرة الواقعة تحت سيطرته وأوامره. هذه الحالة تدخل الرجل الذي سيطعن نفسه بالحربة في حالة غيبوبة. يتخدر الجسد وتتجلى الروح متقمصة الرفاعي السيد الأكبر. الطعنة ، كما يعتقدون ، يتلقاها السيدّ الذي دخل الجسد كروح وإرادة قوية تقهر الحديد والنار والزجاج والسمّ. وختم كلامه بأن بعضهم مدرب على امساك الجمر والضغط عليه بالقبضة دون أن يحترق ، وآخرون يأكلون الزجاج وشفرات الحلاقة ويمسكون الافاعي المسمومة فيخضعونها لأنغام خاصة بحيث تخرج من أوكارها وتأتي اليهم صاغرة ، انهم ينادونها لتخرج : تعالي يا مباركة. باسم الملك سليمان ابن داوود ملك الانس والجان. وبقدرة مولاي وسيدي وشفيعي الرفاعي أطلب اليك أن تخرجي من الدار الضيقة إلى الدار الوسيعة. اخلعي ثوبك الاسود والبسي ثوبك الأبيض ، ثوب العرس والافراح والليالي الملاح الذي زفّوك فيه لسيد الجان الملك سليمان. هيا. مدد يا رفاعي مدد. ويبدأ بعد هذا النداء يغني لها ويضرب على المزهر حتى تخرج اليه طائعة فيصيح : انظروا معجزات سيدي الرفاعي الذي اخضع الافاعي في أوجارها والاسود في غاباتها والصقور في جبالها. انظروا واتعظوا يا جبابرة الأرض الصغار. بعد هذه الحكايات التي اخافتني في البدء ثم شدت انتباهي ولذّت لي حكاية صيد الافاعي ، سألت عمي عن قصة الشمس وكسوفها فقال بأن الأمر حادث طبيعي له علاقة بدوران الأرض والقمر.

– ليس من أجل فلسطين انكسفت إذن؟

– هيه. هيه. دعك من خرافات عمك سالم. يا نافذ يا ابن أخي بعد ان تصل بالسلامة ستتعلم وتأخذ شهادات ويتفتح عقلك وتضحك على هذه الخرّيفات. سأقول لك كلمة لا تنساها : اليهود غلبونا بالعقل والعلم. نحن جماعة

ضعاف العقول ما زلنا نعيش في العصور الحجرية وبس نطلع من هذه الكهوف القديمة نغلبهم.

●

لا بد ان صور تقع في نهاية الأرض، ولن تصلها قبل أن ننهك وننفق في هذه الشاحنة التي تعود إلى ما قبل التاريخ.

انها المرة الأولى التي أبتعد فيها عن أمي. كانت علاقتي قد توطدت بها منذ أصيبت في وادي النسناس وتعمقت أكثر بعد ان صارت بقدم خشبية.

– ماذا لو ماتت أمي في البحر؟ سألت عمي فجأة على غير توقع منه. مسح شعري ثم ربت على كتفي وقال: من أين تأتيك هذه الأوهام؟

تأكد انهم سيصلون قبلنا وعندما تصل سيكونون في لقائنا.

وقلت: خفت من كسوف الشمس.

– لماذا؟

– انهم يقولون ان ذلك نذير شؤم يا عمي.

– عجيب! انت في عمر الشباب ولست طفلاً ومعك شهادة كفاءة فكيف تفكر كالدراويش؟ يا عمي قلنا لك بأن كسوف الشمس يحدث دائماً من تداخل القمر بين الشمس والأرض.

– لكن قلبي يدق يا عمي. انني خائف ألاّ اراها هي وأبي واخوتي. خائف ان يغرقوا في البحر.

– هو ما في غير امك في البحر. أولادي وزوجتي وأولاد عمك سالم وزوجته. نصف اهالي حيفا في البحر. الناس تصل بحماية الانكليز، واليهود عندهم عيد لتفريغ حيفا من العرب.

قال ذلك بغضب ومرارة ، وبنبرة توبيخ أخرستني . تحاملت باستخذاء مبتعداً عنه وانزويت في الزاوية قرب عمي سالم الذي كان نائماً .

●

ها نحن في الناقورة أخيراً . ترجلنا لنأكل ونستريح . في مركز انطلاق السيارات كان هناك لغط وازدحام واصوات السائقين والمعاونين : صور . صور . اين ركاب صور؟ وكان الأهالي الذين سبقونا وأهالي المدينة يسألون إلى أين وصل اليهود؟ وهل اخذوا حيفا؟ وكم عدد النازحين؟ والقتلى هل هم بالآلاف؟ وأين الجيوش العربية الجرارة؟ وهل حقاً باع الفلسطينيون الأرض ليكسبوا العرض؟ وهل يصل اليهود إلى هنا؟

في تلك اللحظات المريرة والمشتتة كانت الاجوبة أكثر مرارة ، وما كان بعضها ليقنع المذعورين الواقعين تحت سطوة الاشاعات والمبالغات والدعاوى الملفقة .

لقد بدا الشعب، وكأنه تحت اعصار أو فيضان مجنون اجتاحه في غفلة من نفسه فأضاع صوابه ، وراح يجرفه كورق الخريف صوب البحر أو الصحراء . حتى التشبث بصخرة ما كان ممكناً في لحظة الانهيار على سفح الهاوية . كانت السماء والأرض مسحوبتين من تحتنا ومن فوقنا وكنا نتأرجح في الفضاء العاري . لقد بدا وكأن حالة التوازن فقدت ، وأننا صرنا خارج الجاذبية .

بعض الشيوخ والعجائز كانوا يجيبون بعصبية على اسئلة الاهالي والناس المذعورين ، بأن الاحوال سيئة والشعب مجروح وواقع تحت رحمة الله ، ثم يستدركون بشفاعة أمل وخشبة نجاة وهمية ، بأن الله العزيز الحكيم لن يتخلى عن عباده الذين يتجملون بالصبر والسلوان ، وأن من اراد البقاء فليستعن بالرحمن ويكبس الجرح بالملح ، ومن اراد الخروج فليتوكل فلن يصيب الانسان إلا ما كتب الله له : ان لنا اسوة بهجرة الرسول الاعظم يوم حاصره الكفار في

مكة فأسرى مع صاحبه إلى المدينة ثم تبعه المهاجرون. ان أنصارنا هم عرب لبنان وسوريا والاردن ومصر. هؤلاء اخوتنا ولن يتخلوا عنا في هذه المحنة.

□١١□

كانت المدارس والجوامع والكنائس والمستشفيات وبيوت الصوريين تتلقى افواج النازحين، المدينة بكاملها هرعت وهبت للنجدة والمساعدة. البحارة وعمال الميناء وطلاب المدارس والموظفون كانوا ينقلون الاطفال والمرضى والأمتعة من الميناء ومراكز التجمع تحت جنح الظلام. وخلال وصولنا ليلاً كانت المدينة غاصة بالحركة والبشر. كانت المدينة مستنفرة لإنقاذ الناس ومساعدتهم، وكنا نسمع البكاء والآهات وصرخات النسوة الباحثات عن اطفالهن. ووسط الهرج والصخب كان أهل المدينة المستنفرون يخففون البلاء بالأطعمة والمياه. لقد جاؤوا بالبطانيات والبسط والثياب من منازلهم وحوانيتهم وراحوا يوزعونها مجاناً. وانطلقت فرق الانقاذ والمساعدة من الطلاب والشرطة تواسي الشعب المهان والمكسور: صور هي حيفا. انتم في حمى اهلكم. كلنا عرب ومسلمون. بيوتنا بيوتكم، وفراشنا فراشكم وطعامنا طعامكم. سنقتسم معاً الخبز والزيت والملح والماء والثياب والنوم. نحن اخوة وأنتم بيننا كأنكم في دياركم.

وكان آخرون يطوفون على الشعب المرمي في الساحات ومرائب السيارات وساحات الجوامع والمدارس ومعهم أدوية للمرضى والجرحى، بينما انطلق بعض رجال الدين يوزعون أدعيتهم وشتائمهم على اليهود القتلة الذين استباحوا أرض محمد والمسيح وخالفوا شريعة نبيهم موسى وعصوه فتاهوا أربعين عاماً في الصحراء عقاباً لهم. لقد حاربوا رسول الله في خيبر فحقت عليهم اللعنة إلى يوم الدين: وبشر القاتل بالقتل والزاني بالفقر وديار الظالمين بالخراب يوم الحشر والدين.

ما كنت اعتقد أو أتصور ان يوم الحشر والدين سيكون أقسى من هذا الحشر الذي نحن فيه. لقد كنا كالأسرى والعبيد في تلك الأيام السوداء. كل ما كنت اراه واسمعه كان شعاعه يتوهج في وجه أمي واخوتي الذين نبحث عنهم مع عائلة اعمامي في ساحة الميناء والشوارع ومراكز التجمع.

سمعنا الشائعات تتناقل عن حصار آلاف العائلات والاطفال الذين اختبؤوا في زوارق صغيرة بين البوارج والدارعات الانكليزية في قاعدة مرفأ حيفا العسكرية

خوفاً من هجوم اليهود، بانتظار الابحار بهم إلى صور، ولكن البحارة الانكليز رفضوا تقديم الماء والطعام لهؤلاء المحاصرين. ووصلت اخبار من شهود عيان تتحدث عن هجوم الهاغاناه على المرفأ وضرب بعض الزوارق التي انكشفت في عرض البحر بعد ابتعادها عن البارجات الانكليزية. لقد ضربوها بالرشاشات والمورتر فجرح واستشهد غرقاً مئات الاطفال والنساء في اعماق البحر.

ووصلت رواية القادمين من عكا بعدنا. كانت اخباراً مريعة. القتلى والجرحى بالآلاف. مستشفى المدينة غصّ بالمصابين. الفرش والبطانيات والحصر مُدّت في ممرات واروقة المستشفى. لقد استخدم اليهود رصاص الدمدم السام فكان الجرحى ينفقون بجراحهم التي سممها الرصاص.

حتى الصباح ونحن نبحث عبثاً عن العائلات والاطفال. قالوا لنا أن صور ازدحمت فأرسل قسم من الشعب إلى مراكز تجمع في الضواحي والقرى في الرشيدية وبرج رحال وبنت جبيل.

وقال عمي صالح: اما انهم تأخروا أو ارسلوا إلى خارج صور. سنذهب لنبحث عنهم في القرى. كنا الآن في جامع عمر بن الخطاب نتكوم في زاوية منه بين عشرات العائلات التي تناثرت في الساحة وداخل المسجد وعلى المداخل. كتل من اشياء شبيهة بالبشر الاحياء، تكومت تحت اسمال من بقايا الثياب والحصر والبطانيات والمعاطف البالية.

●

بعد اسبوعين في مدينة صور اصابنا يأس وتحققنا من الكارثة. اعمامي فتشوا عن العائلات في جميع القرى التي أرسل اليها النازحون ولم يتلقوا خبراً كل يوم كنا ننزل إلى المرفأ صباحاً ومساء. كانت تصلنا اخبار عن بواخر ذهبت خطأً إلى قبرص بعضها تابع رحلته إلى سوريا أو بيروت. عمي صالح سافر إلى بيروت

وسوريا وعاد بخفي حنين. في الاسبوع الثالث قطعنا الأمل وايقنت ان وجه أمي ووجوه اخوتي وأبي قد غابت إلى الأبد.

كنت في ساحة الجامع. سمعت الناس يروون عن هجوم الهاغاناه على الزوارق والبواخر التي تحمل المهاجرين، وكيف اندفع هؤلاء في زوارق حربية سريعة وراحوا يحصدون العائلات والاطفال في عرض البحر حتى تحوّل البحر إلى حقل من دمٍ تسبح فيه الرؤوس والأيدي والأرجل المقطوعة تحت مرأى ومسمع جنود البحرية الانكليز.

تخيلت أمي واخوتي طافين على سطح البحر وقد مزقهم الرصاص فاندفع بكائي شهيقاً حتى لكأن عيني اصيبتا بطلقتين. كانت الدموع تتفجر وتنهمر كالدم. رحت اضرب الحائط وأدق بلاط الساحة صائحاً: أين أمي، هاتوا لي اخوتي وأبي. اريد أن اعود إلى حيفا. آه. يا أمي. آه. يا غالية. يا حنونة. أريد أن أموت.

كانت صورتها تأتي محمولة على امواج الدمع فيزداد نحيبي. مرة وهي تهوي فوق خالي جريحة، ومرة وهي تنادي في مقبرة الشهداء وتندب، ومرة وهي تحجل في البيت وتضمني بين ذراعيها وتروي لي حكايات، ومرات وهي تطفو على وجه البحر ثم تغيب سابحة بدمائها وهي تصرخ ثم تصمت ثم تحاول أن تمدّ ذراعيها ثم تهوي وتتحول طعاماً للأسماك.

عبر هذه الأطياف ما كان الدمع ليتوقف، وأقبل الناس يحاولون تهدئتي، ضربت الأولاد والنساء وشتمتهم: أريد أمي. دعوني أموت. لطمت رأسي بجدار الجامع. وعبر بروق الدمع لاحت جثث اخوتي الصغار تطوق جثة امي وهم غارقون في برك ودوائر دمائهم: آه. آه. لماذا ماتوا؟ ماذا فعلوا ليقتلوهم؟ ليتني بقيت ومتّ معهم. ما كنت اسمع شيئاً مما يدور حولي غير الطنين ولا أرى غير الاشباح. كان الدمع يغشي بصري. وكانت الايدي تضغط على زندي وتمسك

رأسي وتطوقني وأنا اتملص واندفع هادراً كحيوان مجروح : اتركوني يا أولاد الكلب. اريد أن أموت. ابعدوا عني. ماما. ماما. أين انت يا نور عيني. يا ضيا قلبي. آخ. آخ. مت-وتركتني وحيداً. كيف اعيش بعدك.

الصفعات التي تناولت وجهي آلمتني. حدّة وجعها تخطى الالم النفسي وانفجارات الدمع. من خلال شفافية الدموع لمحت وجهاً شبيهاً بوجه عمي صالح. كان يصلب ذراعي على الحائط ويتناوب صفعي على خدي بكفين صلبتين. بدأ رأسي يثقل. من شدة اللطم والصفعات تدلى. لقد قطع عمي صلاته وهرع إلي عندما أخبروه. وجهه الذي ميزته وأنا أستفيق كان في سواد القار، وراح تحت غضب مكتوم مستعر بالقهر، يؤنبني : كلب. مجنون. ماذا دهاك! تشمّت الناس فينا في هذا الوقت الضيق! الا تخجل؟ طفل انت حتى تفعل ذلك؟ عمرك خمسة عشر عاماً وتتصرف كالأطفال. آلاف الناس ماتوا والآلاف تيتموا. بلاد بكاملها تحت السكين والبارود وانت تبكي في البلاد الغريبة كالحريم. أفق على نفسك. أفق. اعترضته : دعني.. دعني أريد أن أموت. حاولت التملص من ضرباته وأنا أصرخ. صدمت كفه أنفي فأرعفت وسال الدم من أنفي فصحت موجعاً. امسكني بمقدم شعري ثم رفع رأسي إلى أعلى في مواجهته. جحظت عيناي : يا ابن الكلب. والله ان لم تستيقظ سأذبحك. وبسرعة سحب من جيبه مطواة فتحها ووضعها على رقبتي : يا حيوان. يا امرأة. الا يكفينا ما بنا!

أأنت الوريث والشبل الذي قال عنه الشهيد محمد هذا سيكمل طريقي؟ بالدموع ستعيد فلسطين؟ أهكذا يتصرف ابن الشهداء؟ تفوه عليك وعلى البطن الذي حملك. يا ليتها حملت جرواً ولم تحملك.

استخذيت، تهالكت مستسلماً ليديه. كانت كلماته تنفذ كالسكين إلى القلب. طوى المدية وجرّني إلى داخل الجامع. كنت متعباً حتى الاعياء وكأنني خارج من معركة.

ألمي وحزني انفجرا كما ينفجر دمل تحت ضربة مبضع .

في زاوية المسجد أجلسني عمّي في حضنه وراح يمسح دم أنفي ودموعي . وطلب لي ماء وسقاني . قال وهو يمسح وجهي وشعري بحنان الأب : اخرج واغسل وجهك . العن الشيطان واستخذه واستغفر الرحمن .

بعد غسل رأسي ووجهي عدت صاحياً . جئت إلى عمي وقبلت يده : سامحني يا عمي . سامح ضعفي وألمي . قال : بل سامحني أنت لأنني قسوت عليك أكثر من اللازم . ثم أخذني بين احضانه وقبلني : إذا مات أبوك وامك يا نافذ يا حبيبي فأنا أبوك وامك . نحن أيضاً فقدنا عائلاتنا وأولادنا وما بكينا . شجرة البلاد تذبل بالدموع وتنمو بالدماء وهذه الشجرة الذابلة تحتاج دمك في الأيام القادمة .

الفصل الثاني

□ زمن الرعد والازهار □

□١□

الغربة.

اجتازت عشرين عاماً من التيه. من الانفاق المظلمة، والممرات الضيقة، وبوابات النار. عشرون عاماً من التيه: من حيفا إلى لبنان فالاردن فالعراق فالكويت فسوريا، ثم عينا بوس أخيراً. مياه كثيرة مرت تحت جسرها، وآلام بحجم الأرض مرت فوق الجسر. تيه وشتات عبر دروب الأرض الملعونة، وفي كل نقطة من الكرة الأرضية يحمل الذي عاد بلا وطن تهمة: الغريب. قربها صرخته الجارحة:

متى أعود؟

وما كان أحد بريئاً من دمه المباح.

وما كان أحد بريئاً من أكل لحمه الحيّ والميت.

وفي زمن التيه وتضميد الجراح، قال عنه الاشقاء في بلاد الغربة، اذ خُدعوا بسكينته، لا هو حيّ فيرجى ولا ميت فينسى.

وكما قال العجوز في شاحنة حيفا – صور: لا السماء كانت شفيعاً ولا الأرض كانت حنوناً.

وكان منبوذاً ومطارداً ومُلقى كالوباء على أطراف المدن العربية، ينام مع الذل والارتهان. ويستيقظ على صرخات المعتقلين والذين يُساقون إلى ساحات الاعدام تحت الضحى.

انفجار من الحقد والكراهية واللامبالاة والغدر والنبذ ، ثم التهم التي تُرشق كطلقات البنادق حول الجبن والهرب وبيع الأراضي وتسليم الوطن للأعداء بلا ثمن .

أما الذين نسوا خيانة عبد الله والشرباتي وصالح جبر وفساد أسلحة فاروق وهزيمة خمسة جيوش جرارة ، عبيد صاحبة الجلالة ، فقد كانوا انقياء واطهاراً إزاء أولاد الزنا الذين سلموا ارضهم ونجوا بعرضهم .

هكذا تناوشوه ، هو الجريح ، كضباع كريهة الرائحة ، ثم قذفوا به إلى الخيام تحت العراء العاري . وفي زمن التيه كان العراء والبراري والوحوش أكثر رحمة وأوسع صدراً .

لقد أهانوه وضربوه وهو مكبل ، ومسحوا بجسده عار خياناتهم ، ولم يتوانوا عن ذبحه عندما طلب منهم سادتهم في لندن ونيويورك وتل أبيب ، وما اتقوا في ذلك غضب شعوبهم يوم يُحاسبون بدمه في يوم قيامته .

وعبر عشرين عاماً آجروا به وطردوه كطاعون او جراد حلّ عليهم في يوم صائف .

وخلال تلك السنوات السود ، عبر الشعب المكسور الظهر مطهره تحت صهد الشمس والجوع والعطش ، وسياط الذل اللاسعة . لقد قاوم بالروح المنبثة في تجاويف الصخر ، ضربات الريح والامواج وغضب آلهة الأرض .

وفي حقبة الظلام وأزمنة الشدّة ، تعلم الشعب الصابر والمستباح ، عدم المغفرة والحقد الصامت ، في الوقت الذي كان يخيل فيه لكل الاعداء ان روح النعاج بدأت تتسرب إلى روحه بفعل مصل الاهانات الذي يُعطاه كل مشرق ومغرب شمس .

وفيما بعد ، بدا واضحاً انه كان وفياً لنذر نذره في سرّه ، وهو يُداس بالأحذية ، ويضرب بأعقاب البنادق ، وتنزع اظافره في اقبية التعذيب ، ويشيّع

موتاه ليدفنها في براري المخيمات : ألاّ يغفر لجلاديه ، ولا يرحم الكلاب التي مزقت لحمه وولغت في دمه .

ومع أن الأرض كانت رخوة وجرداء تحت شمس حادّة ، إلا أن الاغصان التي سقطت في خريف الزمن ، كانت تدفن ثمارها في رحم الأرض . ومن ندى الصباحات البكر وقطرات المطر استطاعت بذور الثمار الدفينة امتصاص ما يصل اليها من رطوبة لتبدأ دورة الأرض الجديدة حفاظاً على بقاء النوع .

□٢□

درست في العراق في كلية التربية وعلم النفس، ثم هاجرت إلى الكويت وعدت ومعي بعض المال من التدريس، ثم دخلت الجيش الاردني وأتقنت صناعة المتفجرات وقنابل المولوتوف، وسجنت عامين بتهمة اطلاق النار على ضابط مخابرات اردني، ثم عدت إلى عينا بوس وتزوجت امرأة بسيطة من القرية.

وحتى لا أنسى، وتذكاراً للشهداء، أقمت في المزرعة المجاورة للبيت أحد عشر قبراً رمزياً. قبر للكولونيل محمد، وقبران للوالدين، وثمانية قبور صغيرة لإخوتي الذين اغتيلوا في البحر قبل ان تورق شجرة الدنيا في عيونهم وعبر السنوات الضائعة التي كانت بالنسبة لي سنوات الاختمار، بدأت بعض التدريبات الروحية والعضوية.

فبعد فناء وموت العائلة في البحر حدث في داخلي صدع عميق حول الحياة والموت، وحول الايمان والعقل. لم أفهم لماذا مات أهلي، كما لم أفهم لماذا تخلى الله عنهم وهم ابرياء لم يرتكبوا ذنباً ولا خطيئة. لقد زلزل موتهم ايماني فيما بعد وخلق في اعماقي شعوراً بتفاهة الانسان وسقوط قيمته في نظر الخالق الذي تخلى عنه في وقت المحنة.

— لماذا تموت المخلوقات الجميلة والبريئة؟.

وما كان هنالك من جواب مقنع سوى الفراغ، وتلك الهاوية التي لا قرار لها. الهاوية التي غاروا فيها إلى الابد. كان الموت هو الحقيقة المفزعة التي صدمتني وأنا على أبواب الحياة. الحقيقة التي كشفت لي عبور الانسان على شعرة الحياة الرفيعة والهشة، عارياً ووحيداً بلا شفيع أو منقذ.

في الجامعة تزودت بعقل بارد، ومراقبة منطقية لحقائق الحياة، ورفض داخلي للميراث الاسطوري والديني. ميراث حوّل حياة شعب إلى استسلام غيبي واتكال أعمى على قوى خفية وهمية يدعوها صباحاً ومساء لتخرجه من منفاه وتنهي محنته مناجية الطير الابابيل لترجم اعداءه الذين شردوه وطردوه. وفي

الوقت الذي كان فيه هذا العدو يحصن بالاسمنت المسلح مدنه التي اغتصبها ومستعمراته، ويحصن رأسه بالعلم والحقائق الجديدة والمستحدثة، كان القسم الأكبر من شعبي سادراً يهدم حياته بالرقى والتعاويذ والصلوات واحتساء القهوة والشاي والخمر وسهرات الزار والنرد والتراجيل، وجمع المال والنساء، والبحث عن مسراته والعابه الصغيرة عبر المنق.

داخل الحرس الوطني في الجيش اكتسبت مناعة عضوية في الجري وتمارين القتال القريب والاشتباك بالسلاح الابيض والرمي الغريزي واغتيال الخصم بطريقة خاطفة وقذف القنابل اليدوية.

وإلى جانب ذلك تعلمت كراهية العرب الذين كانوا يشيرون الينا بأصابع الاتهام ثم يبصقون وهم يرددون جهاراً او استبطاناً: يا أولاد العاهرة بعتموها وجئتم تحتلوننا.

هؤلاء هم انفسهم الذين باعونا في حرب الـ ٤٨ وغدروا بنا، وها هم يحاولون اذلالنا واهانتنا في الصباحات والمساءات.

لقد حفظت من كتاب المسلمين واحاديثهم عبارة أو آية لست أدري، تقول: العين بالعين والسن بالسن وديار الظالمين خراب.

وهذه العبارة أو الآية وردت في توراتهم. وفي كتابهم المقدس الذي يؤرخ حروبهم من عهد يشوع الفاتح والسفاح حتى السبي وانقراض ممالكهم. كان القتل وإفناء الشعوب الغريبة والعدوة هو القانون السائد. هكذا يرسم الاصحاح الحادي عشر لسفر يشوع: «ثم رجع يشوع في ذلك الوقت وأخذ حاصور وضرب ملكها بالسيف لأن حاصور كانت قبلاً رأس جميع تلك الممالك، وضربوا كل نفس بها بحدّ السيف واباداوهم. ولم يبق نسمة الا وأحرقوها بالنار. فأخذ يشوع كل مدن أولئك الملوك وجميع ملوكها وضربهم بحد السيف. وكل غنيمة تلك المدن والبهائم

نهبها اسرائيل لأنفسهم وأما الرجال فضربوهم جميعاً بحد السيف حتى ابادوهم ولم يبقوا نسمة».

وهكذا من بدء الزمن امتد بيننا ميراث الدم. افتتحوه من سيناء بعد التيه الأول ولما يغلق بعد، ولن يغلق إلا باقامة مملكة داوود من نيل مصر إلى فرات العراق بعد هلاك الشعب؟.

●

أنا الآن بين قبور أهلي أواصل تدريباتي الروحية بعد ان اكتسبت مناعتي العضوية. اتكيء على جدار قبر أمي الغالية، وأرى من فتحات الاشجار النجوم الملألأة، وسماء عالية وفارغة.

لا أعتقد انني غير سوي في هذه التأملات التي تبدو غير طبيعية.

لعلني أفكر في هذا العراء الغريب بمسألة تبدو ساذجة. انها بصيغة سؤال: هل أحيا أم أنقرض؟

وربما لم يكن هذا تحديداً ما أهدف اليه في مجرى الأسباب والحيثيات.

اعتقد انني ادركت جوهر القانون الذي استنه الكتاب المقدس وورثه الذين لا يعترفون بأية شريعة أخرى، وفيما أظن ان تلك الرؤيا المقدسة والمهووسة عن أرض الميعاد وعصور الاجداد القدامى تطرح علي سؤالاً صعباً: هل تموت أم تُستعبد؟

قبل عشرين عاماً ربما كان هذا هو السؤال الذي لم تستنبط وتفك رموزه، لكنه الآن وهو ينتقل من حالة الغموض واللغز إلى مجال الفعل الدموي، يُلقى بيننا على شكل بحيرة من الدماء والأراضي المستباحة.

سأقول اذن، باستنتاج قانونهم، وجواباً على السؤال الفادح، وأنا غير آسف على ما سيحدث في قاتمات الايام، انني سأموت.

ولكن قبل ذلك، سواء سُمح لي أمْ لم يُسمح، (علماً أنه ما عاد بيننا غير قانون الغاب الذي شرّعوه) سأضربهم اينما لقيتهم. سأطلق النار عليهم في البرّ والبحر، في البيت والمعسكر، في المعركة والشارع، في المقهى والخمارة، في الحقل والمصنع. سأطلق النار عليهم وأذبحهم ولو كانوا في احضان الله تعالى يصلّون.

مرة سأقتلهم ثأراً للكولونيل محمد، وتسع مرات من أجل اخوتي وأبي، وآلاف المرات من أجل أمي البريئة والشهداء والمغدورين والبلاد التي سقطت بحدّ سيفهم عندما انكسفت شمسي، وبعد ذلك أموت ضاحكاً.

□٣□

كان ينبغي ان تسميني أمي علاء الدين بدلاً من نافذ علاّن. وكان على علاء الدين هذا أن يطلب يد حبيبته من والدها فيقول له: إذا احضرت لحبيبتك حليب البلابل من جزر واق الواق تكون لك.

وحتى يصل علاء الدين إلى غابة البلابل في تلك الجزر النائية كان عليه ان يجتاز المخاطر والدروب الثلاث الوعرة: درب الحريق، ودرب الغريق، ودرب السد الذاهب فيه لا يُردّ. لقد كنت واقعاً في شباك هذه الاسطورة وفي مخاطر دروبها القاتلة:

درب الحريق كان اليهود.

ودرب الغريق كان اهلي.

ودرب السد كان العرب.

هكذا كنت مطوّقاً بالاعداء من كل الجهات، والحصار يكاد يسدّ المنافذ كلها في وجهي. عبر كل الأصقاع العربية كان الطغاة العرب قد نفوني كأجرب أو كقبيلة من الغجر إلى الأرياف وأحزمة المدن البعيدة، وهناك طوقوني بالأسلاك الشائكة وحراس البوليس وخنازير المخابرات.

وبفعل امصال الذل والتشريد والجوع وضغط المنفى، كان قومي قد تمزقوا مستجدين الحماية والأمن، يتسولون كالشحاذين على أبواب وكالات الغوث وأبواب المكاتب والمؤسسات الحكومية. لقد دجنهم الطغاة العرب فحوّلوهم إلى ما يشبه القطيع المحاصر داخل المخيمات. كثيرون هجوا خارج بلاد العرب كفراً ويأساً وطلباً للعمل والمال، وآخرون اندمجوا في المؤسسات العربية وتحت خدمة الملوك والسلاطين والجنرالات، ولم تتورع أنفار منهم من الوقوع تحت سطوة العدو لخدمته بعد أن يئسوا وماتت ضمائرهم فتحولوا إلى كلاب بوليسية يتبعون الأثر ويأتون العدو بالروائح.

وكان على من تبقى أن يعبر دروب علاء الدين الحارقة والمغرقة والمسدودة ليأتي بحليب البلابل المضرّج بالدم.

●

كنبات الصبار كانت شجرة الكراهية تنمو في أعماقي. شجرة مملوءة بعصارة الحياة الخضراء لكن اشواكها البيضاء مسمومة كناب أفعى. وخلال التمارين الأولية لاستيضاح طريق النجوم الذي سأسير على هداه في الليل الحالك، ونحل معضلتي المستعصية، كنت أحاول جاهداً للموازنة والانسجام الداخلي، التوازن العادل بين أعدائي، وبين الانسجام الروحي، وأنا أطلق هذه الحرائق التي تأكل أحشائي.

لا أدري بدقة رجحان الخطأ والصواب. أي منهما على الآخر، في الحادثة التي جرت في نادي ضباط عمان.

كانت خدمتي العسكرية في الحرس الوطني توشك على نهايتها، وكنت اجهز نفسي للتسريح والعودة إلى نابلس. كان اليوم يوم جمعة على ما أذكر وكنا نحتفل بمناسبة تسريح الدفعة التي سأكون واحداً منها. ضباط فلسطينيون واردنيون بدأنا نشرب ونصخب ونثرثر حول كل شيء يعبر تحت امواج الشرب.

سألني أحد الزملاء ماذا سأفعل بعد تسريحي، فقلت بأنني سأعود إلى البيت وربما عدت للتدريس.

وسأل الضابط: اليس أفضل لو تبقى في الجيش؟ قلت: لا. أنا لا أحب العسكرية.

الملازم الأردني سألني سؤالاً: أأنت سعيد يا ملازم نافذ لتسريحك؟
قلت: بالتأكيد. ومن لا يفرح بخلاصه من الجندية!

وتدخل ضابط اردني برتبة نقيب: وخاصة عندما يكون المسرّح فلسطينياً. كنا نشرب الآن نخب الحياة المدنية أنا وزميلي الأول. واستفزتني عبارة النقيب

فقلت وأنا اضع كأسي : سيادة النقيب هل يمكن أن تشرح لنا الفرق في سعادة التسريح بين الفلسطيني والاردني ؟

ورد بغطرسة : أنا مثلاً كشرق أردني سعيد أن أظل في خدمة سيدنا الملك إلى الابد ، ولم أجب . زممت شفتي . لمحت على جدار الصالون صورة كبيرة للملك ببزته العسكرية ونياشينه وابتسامته .

كان الآخرون يضحكون ويضربون الطاولات ويرفعون الانخاب تحت امواج الصخب والضحك الثمل .

امتعاض عكر استبد بي . شممت في الجو رائحة كريهة . ذلك الضابط اللعين أعرف عدائيته كما اعرف انه ضابط أمن . كان الآن يقذف حجراً في البحيرة لكنني كظمت غيظي .

في مواجهتي كان هناك ضابط فلسطيني . سألني :

هاه . نافذ اراك ساهماً هل حوّمت حيفا فوق قلبك ؟

زفرت بحرقة . وكشعاع خاطف على شاشة بعيدة عبر طائر أبيض كان سعيداً بطيرانه ثم ما لبث ان هوى فوق البحر سابحاً بدمه . لست أدري كيف تدخل ضابط الأمن قائلاً باستفزاز : الحلم بالعودة إلى حيفا كالحلم بالوصول إلى المريخ . حيفا صارت يهودية ولن تعود .

وعندما سألته لماذا يقول ذلك أجاب : من يترك عنبه سائباً ينبغي الا يسأل لماذا تأكله الثعالب . اليهود أحقّ بأرض باعها أهلها وهجروها .

– لكنك تعرف جيداً اننا لم نبعها . الذين باعوا هم غير الفلسطينيين من اغنياء لبنان وسوريا والاردن . قلت ذلك وأنا اضغط انفجاري . وردّ بلؤم : انتم كالنساء تبكون ملكاً مضاعاً لم تحافظوا عليه حفاظ الرجال .

وقلت وأنا أدرك انني اخترقت الحدود : لكن الذي اضاع المُلْك هم الملوك ونحن لم نكن ملوكاً آنذاك .

وبعينين تنفثان شرراً وحقداً قال : أوضح ماذا تعني؟

كان الجو قد تكهرب ،وحاول الضباط أن يتدخلوا لكنني كنت قد فقدت توازني العقلاني ودخلت منطقة الاعصار. قلت ويدي سائبة تحت الطاولة على مقبض مسدسي : عنيت يا ابن الزانية جدّ مليكك المفدّى ثم سيدك هذا-مشيراً إلى صورة الملك - الذي تفخر أن تكون عبداً له إلى أبد الدهر.

الذي حدث هو أن النادي اندفع مذعوراً تحت صدى الطلقات النارية التي لم تتح لضابط الأمن ان ينهض من مكانه.

خلال دقائق كانت الشرطة العسكرية والمباحث تطوق النادي.

اعتقلتني الشرطة بينما نقلت سيارة الاسعاف ضابط الأمن إلى غرفة العمليات الجراحية.

●

لا اعتقد انني كنت مخطئاً. لقد حكمت عليّ المحكمة العسكرية بخمس سنوات بتهمة شتم الملك واطلاق النار على ضابط من القوات المسلحة. غير أن ما فكرت فيه فيما بعد :إن كانت البداية من هنا . وإلى أي مدى كنت عادلاً وأنا أجيب على الاهانة بالنار؟

وأنا ملقى في زنزانة السجن العسكري ، كانت تؤرقني معادلة العربي المعادي واليهودي ، وفي الوقت الذي كنت أتذكر فيه أهالي بلدة صور الفقراء الذين فتحوا صدورهم ومنازلهم للشعب المشرّد والتائه ، كنت أرى هؤلاء الجلادين الذين تساووا مع الاعداء.

لقد ضربوني في السجن وأهانوني. شتموا أهلي وبلادي ، وقالوا بأننا نستحق ما جرى لنا ، وأننا نبصق في البئر الذي شربنا منه ، ولولا الملك وشعبه لتحولنا إلى عبيد في مزارع اليهود ومنازلهم.

ومع انني قلت لنفسي : إلى الجحيم. ذلك الكلب الذي رميته ليس أكثر

من جلاد أسود في جيش ملك مُباع. إلا أن المعضلة التي كنت واقعاً تحت تأثيرها، هي من أين تكسر الحلقة للنفاذ من الحصار؟ ثم عندما يتساوى الأخوة والأعداء على من تطلق النار؟

لا بد انني كنت تحت سطوة ريح الثارات القديمة التي ورثتها من ميراث حروب القبائل، وفي لحظات خارجة عن نطاق العقل، وبما كانت ردود الأفعال العضوية تتأثر بأمواج الفعل المنعكس الشرطي.

بعد أن ضُربت حتى الإدماء وداسوا وجهي بالأحذية وهم يشتمون البلاد التي ولدتني، رغبت لو كنت طليقاً لأقتلهم جميعاً بلا ندم.

الآن انا وحيد في الظلام التام. مُهان ومسحوق كحشرة. انني بحاجة إلى ملايين الشهب لأستطيع أن أرى. ولا بد ان حالتي هي حالة من وقع في فخ في أعماق غابة، واعتقد ان مسألة النجاة والخروج لا تتجاوز نسبة الواحد بالألف، ولأنني كنت من الذين خسروا كل شيء وصاروا في مهب العواصف، راهنت على تلك النسبة الخاسرة.

لقد قال شمشون الفلسطيني منذ آلاف الأعوام وهو سجين: عليّ وعلى أعدائي يا ربّ. ثم هدم الهيكل عليه وعلى من فيه.

□٤□

عندما باغتتنا حرب الـ ٦٧ كنت ما أزال في جناح الضباط بالسجن العسكري. جاءتنا الحرب كمفاجأة من خلال الراديو. لقد سمحوا لنا خلال أيام القتال أن نخرج ونلتقي في ساحة السجن بشكل يومي ولساعات أطول. وسرت شائعات حول اطلاق سراح الضباط وامكانية مشاركتهم في القتال.

كان العدو يركز على الجبهة المصرية لتحطيم القوة الرئيسية بينما كانت جبهتا الاردن والجولان تناوشان اسرائيل.

داخل السجن كنا كالنمور المطوّقة في اقفاصها، وفي تلك اللحظات المهيبة والضاغطة تلاشى عداء الاخوة، لقد برزت من جديد الانياب الوحشية والضارية للعدو البربري وهو يكتسح الأرض ويحيلها إلى حرائق وموت.

كانت هناك صرخة واحدة: اطلقوا سراحنا واعطونا سلاحاً. نريد أن نموت في الجبهة. الراديو وحده كان النافذة التي نطل من خلالها على ما يجري. ومن خلاله كنا نهب المرارة ونحن نسمع أنباء تحطيم الطيران المصري الجاثي في أرض المطار، وبداية الهجوم والزحف على الجبهة الاردنية والسورية.

ومن اجنحة سجن الضباط وضباط الصف والجنود علت الاصوات: ارسلونا إلى الجبهة لنموت. نحن لسنا خونة.

كان الحراس يأتون للتهدئة وايقاف الشغب والغليان الذي انطلقت نذره داخل السجن. وكان المساجين يطالبون بإلحاح: ارسلونا إلى الجبهة الآن وبعد الحرب اعيدوا الاحياء منا إلى السجن.

- الا تسمحوا لنا أن نموت في سبيل بلادنا؟
- الا يحق للسجين أن يحارب؟
- نحن وطنيون.

- أيها الخونة.

- متواطئون.

- يا للخنازير.

- خدم الملوك.

- الوطن في خطر.

- الموت أفضل من سجونكم أيها الكلاب.

وتحت رهبة الحرب كان الحراس فزعين لا يدرون في غمرة الفوضى ماذا يجري وكيف يتصرفون، فالحرب أفلتت الأمور من عقالها، وشلّت قبضة الإرهاب والقمع. وبدأ الحراس يتوسلون:

الهدوء. رجاء الهدوء. انما نحن مأمورون وقد رفعنا مطالبكم للقيادة. الدنيا حرب كما ترون والطاسة ضائعة.

كان أسوأ ما يشعر به الجندي المدرب أن يكون غائباً عن المعركة وهي مشتعلة. وداخل السجن العسكري كان مئات الضباط والجنود يعانون وطأة المهانة والشعور بالنبذ بينما البلاد تحترق.

وفي ساحة السجن بلغ الاحتجاج أوجه عندما استمعنا لأخبار سقوط الجبهة المصرية وبداية اقتحام الجبهة السورية المحصنة. وتصاعدت الهتافات واللعنات، وتحول جنون العسكريين إلى تظاهرة هجمت نحو الابواب الحديدية مهددة بتحطيمها.

كنا ندور ونصرخ في الباحة الضيقة كمأخوذين كسروا حاجز الخوف ونحن نهتف بالحرية ومواصلة القتال واطلاق سراحنا، ولكن كانت هناك الاسوار والأبواب المغلقة وبنادق الحراس.

- كيف تسجوننا والدنيا حرب؟

وانطلقت الهتافات :
– عبد الناصر هات . هات . حرية وانتصارات .

– الموت للعملاء اعداء الشعب والحرية .

– يا فلسطين جينالك تنشيل حمالك .

– عبد الناصر يا جمال يا مقدام عروبتنا .

– فلسطين بلادنا واليهود كلابنا .

– ليا وليا يا بنيا . ضرب الخناجر ولا حكم النذل فيّا . هاتوا السلاح يا اخواني نحو الجبهات العربيا .

تحت غمرة الانفعال هجمنا على الحرّاس الذين تراجعوا نحو الممرات والجدران . وعلت أصوات : السلاح لقتل العدو لا لقتل الشعب . هاتوا سلاحهم يا شباب ولا تمسوهم بسوء .

لم يطلق الحراس النار . سلموا اسلحتهم تحت وطأة الهجوم العنيف . اخذنا السلاح وارغمناهم على فتح الابواب .

حدث ذلك في اليوم الثاني عشر من حزيران ، يوم نهاية الحرب .

□٥□

بسقوط الضفة الغربية وغزة اكتمل سقوط فلسطين. دخل حلم هرتزل مجاله الواقعي فاستحق أن يكون الأب الروحي لمجد اسرائيل الجديدة التي استعيد مجدها القديم في القرن العشرين.

عندما وصلت عينا بوس ليلاً لم تصدق زوجتي عينيها وهي تعانقني.

سألتني عن أشياء كثيرة وأنا صامت معظم الوقت. كنت متعباً من المسافات ووعورة الجبال والدروب التي قطعتها حتى وصلت.

أخيراً ها نحن معاً بعد غياب عامين. رائحتها كانت عبقة ولذيذة كرائحة ليل فلسطيني في صيف مزهر بالبرتقال.

انغمرنا. نسينا الحزن والآلام والغياب الطويل في غمرة دفء الجسد. وأنا أستنشق عبير جسدها كانت رائحة البلاد تطويني. نسيت الانسان الذي كان مقذوفاً كنيزك خارج عن جاذبية الأرض.

عينا بوس وامرأتي كانتا حقيقيتين الآن، وها أنذا ما أزال حياً تحت أمواج روائحهما العابقة.

هيأت المرأة حماماً دافئاً. تحت الماء الساخن شعرت بالحياة ودفقها الحار. كنت منشرحاً وأنا اخرج من الحمام. كان هناك طعام لذيذ وخمر ونجاوى. شربت حتى الثمل وثرثرنا عن السجن والهزيمة والشوق وطفلنا النائم والأيام الجميلة التي سنعيشها معاً. وكما لم يحدث في حياتنا مارسنا الجنس بعذوبة وشوق الأرض العطشى للماء.

– هل اطلقوا سراحك؟

– لا. هربنا.

- كيف؟

- شلّحنا الحراس بنادقهم وفتحنا باب السجن.

- وحراس الاسوار؟

- تبادلنا معهم النيران وسقط بعض الجرحى.

- كم كان عددكم؟

- لا أدري. كنّا بالمئات. ضباط وضباط صف وجنود.

- وماذا حدث للآخرين؟

- طشّوا في البراري والأودية والمخيمات. الدنيا فوضى وحرب. كل واحد مسؤول عن نفسه في هذه الأيام الفلتانة.

- لكن ألن يطلبوك كعسكري؟

- هناك آلاف المفقودين والضائعين والملك وحاشيته مشغولون بالعرش والمملكة في هذه الأيام.

- هل ستهدأ وتعقل؟

- نامي. نامي. غداً نفكر بالمستقبل والعقل.

●

تعتقد هذه المرأة الساذجة والريفية انني مهووس بحالة غريبة تسميها: البحث عن المتاعب. هي تريد أن تبني بيتها الصغير واسرتها، أما أنا فترى فيّ رجلاً جامحاً يتزع لتغيير الدنيا التي تسير بقضائها وقدرها.

لقد كانت امرأة غفورة، مستكينة. مركز العالم في رأسها عينا بوس ودارها التي اعتنت بها وزينتها بالاشجار والورود، وزرعت في ارضها البطاطا والبصل والثوم وحمتها من الحيوانات الداشرة والطيور ودجاج الجيران.

وعندما كنت احدثها عن الجراح والبلاد السابحة بدمائها ، وعجز الناس ورائحة الايام العطنة ، كانت تحلم بأيام رغدة ورجل مقيم وبيت لا تزعزعه الرياح .

إنها خائفة من فقداني رغم قناعتها الداخلية أن ما أقوم به ليس سيئاً أو قذراً .

– لو الناس جميعاً مثلك لمااحتججت لكن أنت وحدك يا نافذ تحمل الدنيا ومتاعبها على كتفيك .

– لا . لست وحدي يا وديعة . انما الناس يلزمهم وقت ليفيقوا .

– أنت تتعذب والناس راضون وسعداء بحياتهم .

– غير راضين . هم مغلوبون على امرهم .

كانت تصمت في منتصف الحوار . انها تتوجس من غضبي ، ومن احساسها الدوني بالفرق بين مستوى رجل متعلم ويحمل شهادة عالية ، وامرأة خرجت من المدرسة في الصف الخامس ابتدائي .

– من الآن فصاعداً سوف لن تتدخلي في شؤوني . أنا اعرف ماذا أفعل . لن ينقصك شيء أما السياسة فاقفلي أذنيك عنها وصوني لسانك .

●

منذ اسبوع وأنا استلقي بين قبور أهلي . بين الأضرحة حفرت حفرة وغطيتها بأغصان الشجر . زوجتي كانت تأتيني بالطعام والقهوة والشاي . أحياناً تسألني بخوف عن حالتي فلا أجيب . انها تعتقد انني مصاب بحالة قريبة من الجنون . في الليل على ضوء فانوس الكاز تجلس قربي صامتة وأنا ممدد فوق بطانية ، أنظر من فتحات الاغصان إلى النجوم البعيدة . كنت أرى عبراتها وهي تنساب وأحياناً اسمع شهقاتها . وذات ليلة أوضحت لها بأن هذا الوضع حالة أمنية خوف المداهمة ، وينبغي الا يعرف الجيران وأهل القرية بوجودي ، وعليها الا تقلق لأن الحالة مؤقتة وعما قريب سأعود إلى حياتي الطبيعية .

غير أنني في حقيقة الأمر كنت أعبر وضعاً غريباً. كنت في حالة ذهول وشرود وكأنني خارج العالم. انني أهذي وأتحدث مع القبور وأحس أمواجاً من العجز والعزلة تغمرني. هوذا الموت يطوقني من كل الجهات وأنا لا أستطيع أن أفعل شيئاً. لا أعرف ماذا سأفعل بعد هذا الدمار الذي حدث. الدمار الذي اجتاح كالإعصار هذه البلاد الملعونة فزعزع توازن العقل وأطار الصواب.

الأيام الستة تساوت مع أيام حيفا وما تلاها. وها هم الذين قال عنهم نبيهم بأنهم خير امة اخرجت للناس يسقطون تحت حوافر الاعداء. الذين ما كانت الشمس تغيب عن امبراطوريتهم، ها هم يتحولون شتاتاً من العبيد والقتلى والجرحى والمشوهين والندابين.

سبايا نبوخذنصر وعبيد بابل أخذوهم أخذ عزيز مقتدر، وساقوهم بالرصاص والقنابل إلى المقابر والكهوف والذل الأبدي.

تمتد اصابعي إلى جدار الحفرة فأشعر ببرودتها وهشاشة التراب. اضغطه فيتفتت ويتحول إلى ما يشبه الرمل بين اصابعي. افكر بشعب الصحراء الذي سيُعاد إلى صحاراه ومضاربه وازمنته الرعوية. أنكون فعلاً شعباً من الرعاة لا يستحق غير الصحاري؟ أم أن العالم يثأر من هؤلاء الذين دقت حوافر خيلهم أبواب باريس وغرناطة؟ أم انهم صليبيو القرن العشرين يعودون تحت راية داوود ليقذفوا بالاعراب إلى البوادي والقفار التي جاؤوا منها؟

لا بد أنني ملتاث وواقع تحت سطوة الهزيمة والعار. ان العلامات القديمة ووشم سنوات القهر الداخلي والكبت والاستبداد والجوع والخيانة والكذب والعزلة، تطفو الآن خارجة من اعماق المستنقع شبيه اوراق الشجر الاصفر المتساقط تحت هذه الريح الصرصر.

بدأت كوابيس مخيفة ودنيئة تنتابني. كوابيس اغتصاب وعُري. أكثر ما كان يجرحني رؤيا أمي وهم يخرجونها من القبر عارية ثم يجبرونني تحت التهديد بالقتل على اغتصابها.

وفي لحظات خارجة عن نطاق التفسير والتوازن أرى نفسي عارياً في فضاءات بعيدة وأراضٍ مهجورة، مبلّلاً بالبول والغائط. ابحث عن ماء لأغتسل فلا أجد غير الغبار أو الوحل. ثم لا ألبث أن أرى جسدي غائصاً في مستنقعات ونفايات .اهيم في البراري باحثاً عن صيد ومعي بندقية وإذ أرى طريدة وأهمّ باطلاق النار تتحول البندقية إلى قصبة مجوّفة. اضغط فلا تنطلق. انهض على صرخاتي في الحلم فأفاجأ بالليل الجاثم ووحشة العراء القفر.

في الصباحات وأنا اتناول قهوتي وادخن تمرّ على شاشة الجنون والعقل المضطرب قوافل القبائل التي انتهى زمانها. النفوس التي حُقنت بأمصال المهانة والموت فانكسرت وتراكم الرماد فوق وهجها القديم.

— لا بد أن سيفنا سقط وما من أحد ينحني ليلتقطه، وشمسنا انكسفت. وها هوذا زمانهم يشرق تحت وهج هذه الشمس الفولاذية.

●

مرّ الاسبوع الثاني وأنا ما زلت بين هذه المقابر. اخرج في الصباحات نحو الهضاب وشعاب الأودية موغلاً داخل الاحراج. اتذكر سحابات الطفولة العابرة بين هذه الادغال. الطيور والصخر واشجار البطم والزعرور والزعتر وحقول الزيتون والمغاور القديمة. انني احبها الآن أكثر مما مضى وأشعر بالرغبة الجامحة للانصهار فيها. تحت الندى والشروق البكر للشمس تبدو لي خضراء وصلبة ونابضة بالحياة. اجلس على مطلات الاودية فوق هذه الصخور الرمادية الرطبة وفي مواجهتي السفوح والقرى البيضاء وهذه الاشعة الدافئة المنسابة إلى مسامّي ومسامّ الصخر والشجر والأرض. هذه هي البلاد العذراء ملءْ العين والقلب أسمع اصداءها الداوية في دمي. هنا ولدت. دروبها أكلت قدمي وأنا اطارد الطيور، ومن شمسها اللافحة انكوى جلدي واسمرّ. بعصارة خضارها وفواكهها تغذت شراييني وتحت ظلال شجرها ومنازلها سمعت اغاني الرعاة وأغاني الأم التي توارت. البلاد

الجميلة ، الدافقة ، المضاءة ، الخصبة ، الخضراء على مدى الازمنة . أرض الآباء والأجداد . أعود الآن فيها غريباً بعد أن سقطت اشجارها ومنازلها وهضابها وشمسها واغانيها تحت حدّ السيف .

●

في المساءات استلقي واقرأ وأفكر كيف اخرج من هذه الحالة الكهفية . حالة الشلل وحسّ التأنيب والشعور بالدونية . تحدثني زوجتي فلا أشعر برغبة الحوار . تبدو الأشياء كالجثث أو كهذه القبور الجامدة . كيف تكون حالة الرماد والرمل ورائحة غبار التبن وعطن الاثاث القديم ؟ أنا كنت داخل هذه الحالة التي لا تشع بغير الموت والفساد .

فيما مضى كان العار يجلل الفلسطيني ، الآن العار تعمم حتى صار قومياً . بلاد بشرها بعدد رمل البحار والنمل ! بلاد كان خليفتها في ماضي الدهور يخاطب السحابة : اينما رحلت يأتيني خراجك . هي ذي سحائبها وملوكها وخلفاؤها وآلهتها وصلواتها وأكاذيبها وغطرستها وأكاذيبها وحضارتها الجوفاء ، تتحوّل إلى مستحاثات .

ومع ذلك فأنا لست حزيناً فيما أظن . فقط أتساوى مع الأرض . في الاماسي اشم رائحتها وامرغ وجهي فوق هذا التراب الغضاري . ولأنني وحيد وعاجز ، اتساءل ان كنت جديراً بهذه الأرض وهذه الروائح التي تهب عليّ من الشجر والزهر والمرأة الجاثية قربي .

غير أن الغزاة الغرباء تقدموا كثيراً في شرايين الأرض ، وتقدموا أكثر في حقول الدم ومسامات القلب .

وها أنذا ، في الوقت الغارب ، تهب فقدان التوازن ، مطوّق بجموع القتلة من كل حدب وصوب . تفترسني الكوابيس والأشعة التي تعمي البصر والبصيرة فيلتبس علي الأمر ويختلط القتلة تحت هذه الشموس التي تتشظى تحت عيني .

اعتقد ان البحر الذي كان ساجياً ورائقاً فيما مضى ، قد اعتكر. صخرة ضخمة سقطت وغارت في الاعماق فأخرج المستنقع من احشائه كل الجرائم والأوشال. الاستكانة والكذب والعجز والخيانة والاغتصاب والاستبداد والانانية والصلوات والحقد البدوي ، كل هذه الجرائم خرجت من اعماق الوحل وطفت على وجه المستنقع .

●

في نهاية الاسبوعين هزل جسدي. تحولت إلى انسان عصابي يثور لأتفه الأسباب. تلك الزوجة المسكينة وحدها كانت تدفع ضريبة انهياراتي. كانت تلازمني وتحاول بكل نبلها الانساني التخفيف من حالتي. تهيء الشاي والزهورات وتحضر الماء الساخن وتنام قربي ، وتبكي دموعاً حارّة عندما تراني مريضاً أو عصابياً .

بعد أن اهدأ تحدثني عن ضرورة التماسك ، وتذكرني بصلابتي القديمة ، واحلامنا عن بناء حياة جميلة وهادئة ، وعن الاطفال الكثيرين الذين سننجبهم حتى لا ينقرض النسل الفلسطيني.

انها تشجعني : يكفي ما أصابنا يا نافذ. إذا أصابك مكروه ساموت. أنت سندي وحياتي والبلاد بحاجة إليك. فكر بالمستقبل يا عزيزي. لقد حدثتني عن خالك الكولونيل وكيف وضع يده على كتفك وهو على باب الموت. أبهذه الحالة التي أنت فيها ستكمل طريقه التي بدأها؟ أنظر حولك. إلى هذه القبور التي صرت كأنك واحد منها. شف حالتنا في كل مكان من بلاد فلسطين. صرنا شعباً من الغجر والبدو الرحّل. ترى من لنا غير أمثالك من الرجال الذين يشيلون الحمل الثقيل في أيام الضيق؟

وكنت أواسيها وأعدها بأنني سأعود عما قريب إلى حالتي الطبيعية ، وما بي ليس أكثر من صدمة عابرة لن تطول .

كيف اشرح لامرأة عادية، نصف متعلمة، في رأسها ثلاث غرف: غرفة للأثاث والمطبخ، وغرفة للنوم والاطفال، وغرفة للزوج الحارس والداقي، أن الريح التي هبت أفقدت الناس معرفة الجهات، وان هؤلاء الاعراب الذين داهمهم الذئب في غفلة النوم لا يصلحون إلا للموت والافتراس.

ثم كيف أوضح لها أن المقهورين والمعزولين والجياع والمسروقة أوطانهم والسجناء، لم يخوضوا الحرب، وأن هذه الحرب اللعينة كانت حرب الجنرالات والملوك والخنازير الذين شرّدونا وامتصوا دماءنا منذ عشرات السنوات، الذين كانوا يستمتعون بخيرات الأرض ويتقاضون ضرائب الشعب ثم يعتقلونه ويطلقون عليه النار بلا محاكمات ويزجون به في غياهب المعتقلات.

أولئك الذين باعونا في الـ ٤٨ هي ذي سلالتهم الجديدة تتابع وفاءها للميراث القديم. الزلزال الذي حدث زعزع الجذور، وعرّى الصخر، وهدم الإساسات الواهية المبنية على الرمل، وجميع القناعات القديمة بدءاً من الآلهة حتى الاسرة والدولة قد تمرّغت في الوحل. لم اعرف كيف اشرح لها ذلك، لكنني صرخت في وجهها ان تكفّ عن الاسئلة والترهات.

●

في هذا الصباح المنعش جاءت زوجتي بالطعام. جلسنا معاً وبدأنا نأكل. كنت منشرحاً وأنا افكر بالخروج من حالتي التي شارفت حافتها المريرة والتطهيرية. لقد بدا لي استمرار هذا الوضع سخيفاً، ولا بدّ أن يودي إلى الجنون أو الانتحار في النهاية. كان لا بد من رؤية الضوء في هذا الظلام والخروج من سطوة الكابوس الذي بدا وكأنه سدّ منافذ الروح. قالت زوجتي: انت تبدو بصحة جيدة هذا اليوم. ولم أجب.

وتابعت: أملي أن اراك كما كنت في سالف الأيام. ولم أجب.

وقالت : الناس في القرية بدأت تتحدث عن الفدائيين. وتوقفت اللقمة في يدي : ايه . ماذا يعني ذلك ؟

قالت : الشباب تحركوا وأنت...

لم تكمل عبارتها لأن كفّي صفعتها . مرة . ومرّة . ومرّة . ضربتها بعنف وشراسة ثم قذفت الطعام بوجهها . في غمرة هيجاني صرخت بي : ولكن أنا لست عدوك . هم الذين اهانوك وليس أنا !

ارتجف شيء ما في اعماقي . برق خاطف اضاء وهزني . تحت الضوء رأيت دموع المرأة وآثار الصفعات وعجزي . كانت أمامي ترتعش وتشهق .

— اوه . يا للعنة !

لقد وصلت الحماقة حدودها المؤذية ، وها أنت تثأر من نفسك في أرض الدمار والحرائق التي اجتاحتك . وفي الذاكرة مرت حادثة أبي وأمي في حيفا .

لم يكن الأمر مؤلماً بقدر ما كان مبتذلاً ومهيناً . لقد أفصح العجز عن سريرته بتهشيم وجه المرأة البريئة التي ظلت وفية لك خلال سنوات الجوع والسجن . شيء ما بكى في داخلي بصمت .

تقدمت من زوجتي واخذتها بين ذراعي . ضغطتها الى صدري ومسحت دموعها : سامحيني يا حبيبتي . ما قصدت الاساءة لك . امر تافه حدث . اغفري لي .

وضعت رأسها في حضني . دموعها انسابت فوق صدري حارّة . كنا نبكي الآن معاً . بكيت بغزارة بكائي في ساحة جامع عمر بن الخطاب على أمي وأهلي المفقودين .

●

تلك الليلة كانت آخر الليالي في حوش القبور. سقط زمن وابتدأ زمن آخر. في صباح اليوم الثاني هدمت الكوخ وسويت الحفرة ثم قبلت الأضرحة، واتجهت نحو البيت.

لقد اتخذت قراراً بمواجهة الرياح.

الفصل الثالث

□ زمن الصدمة والموت □

□١٥□

عينا بوس.

القرية الصغيرة الآن والمليئة بالآثار، والتي تبعد عن نابلس عشرين كيلو متراً، والمغطاة بأشجار السنديان والزيتون والكرمة والعرعار واللوز.

هذه التي كانت جزءاً من مملكة قديمة من ممالك الكنعانيين، بناها الملك عين يا بوس في القرن العاشر قبل الميلاد، ثم دمرها سرجون الثاني الآشوري إبان السبي الأول في أوائل القرن الثامن قبل الميلاد؛ الأرض الخصبة والخضراء على مدى الفصول، دخلت الآن تاريخ احتلالها ودمارها الجديد.

ها أنذا أغادرها بعد شهرين من الاعتكاف والغياب عن حركة العالم، إلى نابلس.

انني أرى الدنيا كرجل خارج من كهف مكث فيه دهراً.

البشر والسيارات والحركة والأصوات. كل شيء يبدو كما هو، كما كان. ثمة جنود الاحتلال يتجولون في الشوارع بأسلحتهم الرشاشة. انهم متأهبون ومنتشون بيسماتهم وبضربات احذيتهم العسكرية فوق حجارة الأرصفة.

الناس في المتاجر تشتري وتساوم، والمقاهي مكتظة، وطلاب المدارس يتأبطون كتبهم وكراساتهم باتجاه المدارس، والفلاحون يسرعون نحو سوق الخضار والفواكه ليبيعوا محاصيلهم، والنساء افواج أمام حوانيت النوفوتيه.

– البلاد بخير اذن وربما كنت وحدي المُصاب. هجست بذلك وأنا اتجه نحو الحوانيت لأشتري ثياباً ومؤونة للبيت وبعض الادوات الطبية.

كان قراري في البدء ان اشتغل في الطب العربي لمداواة الشعب في الأرياف. جدّي كان طبيباً عربياً يستخدم الأعشاب، وفي طفولتي، عندما أعود من حيفا، كان ذلك الجد يأخذني إلى الجبال والغابات ويعرفني على الأعشاب النافعة لأمراض المعدة والكبد والكولون والتيفوئيد. وبعد أن مات أوصى زوجته أن يكون مختبره في القبو الأرضي من بيته لنافذ إذا عاد إلى عينا بوس يوماً. خلال فترة اعتكافي وانقطاعي عن العالم فكرت بمختبر جدي البدائي وبتطوير وسائله الأولية من خلال دراستي لعلم النفس في جامعة بغداد، وهكذا قررت شراء مجهر وأدوات حديثة لمخبر تجارب وتحليلات ووسائل تقطير وترشيح.

وفي فترة السجن والاعتكاف استطعت قراءة الكثير من الكتب النفسية وعلوم الطبيعة بالعربية والانكليزية، كما درست أساليب وطرق التنويم المغناطيسي. كتب لفرويد ويونغ وبافلوف ولوبون ورايش وابن سينا والرازي والشذور الذهبية لأحد الأطباء الأتراك.

أنا الآن في طريقي إلى القرية، وهذه المشاريع تتماوج في رأسي وأنا غير موقن بعد من فعالية السبيل الذي اختاره. افكاري تهجس بأمور أخرى أكثر جدوى وتأثيراً، وعندما نطقت زوجتي بأخبار أولئك الذين اختاروا طريق النار والموت، لم أكن بعيداً عن تلك النار التي تحرقني وأتلظى تحت لهيبها، وفي لحظة وأنا في شوارع نابلس خامرتني فكرة مجنونة: أن أهاجم إحدى دوريات العدو بخطف رشاش أحد أفرادها وإبادة الدورية في وضح النهار.

كان الأمر ممكناً لكن النجاة كانت مستحيلة، وكان التنفيذ يساوي الانتحار الفردي.

وهكذا تابعت سيري بعيداً عن الدورية لأوقف هذا الغيظ المشتعل. كنت أضرب جدران الأبنية وأسحج اسناني وأتنفس بقوة لأزيح الضغط الداخلي. وأنا ارفع رأسي نحو النوافذ العالية والسماء فاجأني مقر الحاكم العسكري. اغمضت

عيني وقلت : الآن عليك ان تهدأ وتعقل يا ولد. لقد لزمهم أكثر من نصف قرن وهم يخططون لاجتياحها. بالسيف أُخذت وبالسيف وحده تعود والزمن هو الذي يصقل السيف.

وأنا انعطف نحو السوق المركزية للمدينة داهمتني فكرة : وحدك ستكون كالشجرة في مهب الاعصار، وإذا لم ينهض هذا الشجر النائم فلتذهب الغابة إلى النار.

●

أختار الآن طريق العمل العلمي. ان هذا سيفسح أمامي مجالاً واسعاً لتقديم العون للشعب الذي هوى في فراغ الهاوية، بعد ان تخلت عنه آلهة السماء الجوفاء والأرض الرخوة.

كنا، في هذه الغمرة، مهانين، وجائعين، ومرضى، ومنذورين للذبح : قذفت بنا القوة المادية الغاشمة والعقل الذري خارج التاريخ.

وكان الشعب المُشَظّى والمسلوب والمغترب، ما يزال أسير الخرافة والقدر والألواح السماوية. يتداوى في أحوال المرض بالرقى والتمائم والكتابة الدينية على البيض ويقدم النذور والاضاحي للأولياء الصالحين. يقف فقراؤه المساكين تحت الحرّ والمطر ساعات وأياماً على أبواب المستوصفات والمشافي ليحصل على علبة اسبرين أو زجاجة ميكرو كروم أو ابرة بنسلين، ثم يذهب ويستلقي على فراشه ليموت بعد ساعة أو يوم أو شهر أو عام.

●

بعد شهرين سألتني زوجتي : أخيراً ماذا قررت؟ وإذ شرحت لها بأن الشعب يحتاج المعالجة والدواء وانني اكتشفت من خلال تجوالي في البراري أعشاباً ضد أمراض الملاريا والتيفوئيد وأوجاع الكولون والاسهال، شعرت المرأة بالراحة. ها أنذا أعود انساناً طبيعياً، هادئاً ومستقراً ينحصر اهتمامه بأعمال انسانية بعيدة عن السياسة ومصائبها.

ها أنذا أتجول بين قرى بيت فوريك وجمّاعين وعين البيضا وعزموط وكفر قدوم وطوباس والقرى والمزارع الأخرى أداوي الشعب مجاناً، وخلال تجوالي أتعرف على أحوال الشعب وآلامه والمصاعب التي تنغّص حياته. كانت سعادتي بلا حدود وأنا اداوي المرضى وأواسيهم ثم أسهر وأنام في تلك القرى، وخلال سهراتنا ولقاءاتنا نتحدث في أمور الطب والعلم والتقدم العقلي الذي وصلت اليه البشرية بينما ما نزال نحن في مؤخرة الدنيا وظلام القرون القديمة. كنت اصطدم أبداً بجدران من الاسمنت المسلح. جدران بناها الايمان الغيبي وحصّنها في وجه غزوات العلم والمنطق، ومع ذلك كنت أكابر ضد هذا الحائط في محاولة احداث ثقب يخرقه رغم التهم التي كانت ترشقني بالدهرية والالحاد.

وعندما كانت الاحاديث والحوارات تصل إلى أبواب السياسة، يرتدي الجدال طابعاً عنيفاً واتهامياً وساذجاً حول الضعف والقوة والبطولات الفردية وتخلي العرب عن فلسطين والخيانات ووقوف الله مع اليهود ضد العرب. كنا ننتقل إلى أسباب نصرهم وهزيمتنا خلال ثلاث حروب، واننا منذ الـ ٣٦ حتى الآن نقاتلهم ونخسر، بينما نحن أكثر عدداً منهم وأكثر شجاعة واقداماً.

وإذا كانت الآراء تتفق حول دعم المستعمرين لهم وقلة الأسلحة والذخائر وانقساماتنا مقابل وحدتهم وتماسكهم، كنا نختلف حول الأمور العقلية والاجتماعية والنفسية.

كانت راسخة في قرارة أعماقهم الطفولة العقلية المؤمنة بالأساطير والأوهام وأشباح السماء. حالة البداوة القديمة المتناسخة فينا والتي تستعيد عصور الجاهلية الأولى أو زمن الخلفاء والرسول.

عندما ألمحت إلى العصور الحديثة وعصور الذرة والعالم الذي صعد إلى القمر بينما ما نزال نرى فيه كوكباً مقدساً، قال أحد الموجودين بأن ليهود مؤمنون بدينهم وأنبيائهم. وقلت: ولكن اليهود وحدوا بين الدين والوطن بينما نحن ما نزال نفصل الدين عن الوطن ونحوله إلى طقوس وعبادات. لقد نسينا إسلام

السياسة وأمسكنا بإسلام الشريعة. أنبياء اليهود كانوا ملوكاً، وإلههم يهوه جسّدوه في صورة انسان قاس ومتوحش يكره كل شعوب الدنيا عدا اليهود شعب الله المختار. اليهود كان دينهم مادياً دمج بين حياة الشعب وحروبه وطقوسه الروحية لأن الكهنة هم الذين وضعوا الدين ولم يكن وحياً، وهم الآن يرفعونه راية غزو سياسي لبلادنا.

بيت مختار قريتنا وربعته الواسعة ملتقى السهارى بعد أن يهبط المساء. على الأرض المفروشة بالبسط وحصر القش وجلود الخراف يجلس الأهالي يدخنون ويشربون الزوفا والشاي ويثرثرون في أمور الدنيا والبلاد. عندما يدخل الشيخ أحمد القطناني إمام الضيعة ينهض الحاضرون تكريماً واجلالاً له. شيخ شاب دون الأربعين، لحيته سوداء ونظراته ثاقبة، جاء إلى القرية منذ عامين في ظروف غامضة هارباً من جور اليهود وملاحقتهم لعائلته المتدينة في «سفارين» التابعة لقضاء طول كرم كما يقول. يتحدث الشيخ القطناني عن اجداده علماء الحنابلة ومنهم محمد بن أحمد بن سالم السفاريني، وشمس الدين أبو العون اللذين كانا من علماء الحديث والاصول والادب في القرن الثاني عشر الهجري. جده أبو العون درس وأفتى بنابلس وفيها توفي. وقد انتقل وهو فتى مع عائلته وأبيه الشيخ إلى قرية «فلامه» التابعة لمدينة قلقيلية، ثم يروي عن بطولة القرية الصغيرة في عام ١٩٥١ عندما تعرضت لهجوم يهودي قدر عدد افراده بـ/١٣٠/جندياً هاجموا القرية بالبنادق والرشاشات والالغام واستمر الهجوم أربع ساعات متواصلة مني فيها العدو بالفشل بعد أن استشهد مختار القرية وجرح بعض ابنائها بعد أن دافع الحرس الوطني والأهالي عن القرية ببسالة نادرة وردّوا المعتدين على اعقابهم، وكان هو ووالده الذي جرح بين المدافعين عن القرية. ومع ان ذلك الشيخ الذي يبدو ورعاً وتقياً كان يدافع عن فلسطين ويندد باغتصاب اليهود لأرض المسيح ومحمد، الا انه كان في خطبة الجمعة وسهرات الليل يدعو للحياد عن الأمور السياسية والاحزاب التي تورط الشعب وتودي إلى المهالك، وما كان ليترك مناسبة إلا ويتهم فيها الدهريين والملحدين والشيوعيين، عملاء موسكو، بأنهم سبب البلاء، وهم الذين جاؤوا بالبدع الملحدة التي تحل الانسان محل الاله وتعيد أصل الكون للطبيعة والمادة.

عندما كنا نلتقي ومعي حقيبة الادوية التي احملها في اسفاري بين القرى ، كان يوقفني ويسألني عما أحمل في حقيبتي فأرد بأنها مليئة بالأدوية للمرضى ، وبذكاء مستبطن بخبث يفاجئني عما أحمل في صدري . فأقول وانا مدرك ما يرمي اليه : فلسطين وآلامها . ويقول وكأنه يعرف جوابي سلفاً : إذا لم يكن هناك ايمان فإن الادوية يا نافذ لا تفيد ولا تنفع وفلسطين لا تعود .

وإذ أسأله عن هذا الايمان فيقول بورع : ايمان بالله ورسوله واليوم الآخر والثواب والعقاب .

وفي السهرات ومجالس القوم النهارية كان لا ينى يبشر ، وهو يسبح بسبحته الطويلة الصفراء : قل لن يصيبكم الا ما كتب الله لكم . يا ابنائي . ان الاعراب فسدت في الأرض والمفسدون لهم النار . قل ان الحكم اله واحد لا شريك له . ويتابع : ان الله جل جلاله لا يفرق بين عربي ويهودي وأعجمي لأنه بعيد عن الهوى . لا فرق في الدين بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى . فالاسلام جاء للناس كافة ، ونحن المسلمين زغنا عن طريق الهدى يوم تركنا الدين واتبعنا الدنيا وملذاتها وحماقاتها . يقول رسول الله : إنما الأعمال بالنيات ، وانما لكل امرئ ما نوى . فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه . انظروا إلى ديار المسلمين اليوم وقارنوا بينها وبين الديار الأولى . لقد انتشر الفساد في النساء والخمر والميسر والنميمة والتفرقة وعلوم الدهرية والإلحاد . كيف يكون الله مع قوم ما عادوا مع نفوسهم ، وكيف يذكر الله قوماً ما عادوا يذكرون الله ؟

عندما كنت استمع اليه وهو محاط بالأهالي من بسطاء الشعب المؤمنين بما يقول ، والمدركين قصورهم الديني أمام علمه وما يحفظ من السور والاحاديث ، كنت أحس الحرج وأنا احاوره في هذه البقعة الخطيرة والمحرقة ، حيث يبدو هو محمياً ومحصناً بألفي عام من اليقين المطلق ، بينما أخوض معركة خاسرة ليس معي فيها إلا نور باهت من العقل الذي لم يسطع نوره بعد .

كنت اخاطبه بسيدي وأنا أوضح بتوجس ان علينا استعادة سيرة الأوائل الذين حملوا الدين والسيف وحرروا بلاد العرب من الرومان والفرس وجمعوا المسلمين كتلة واحدة في وجه اعدائهم.

في اعماقي كان هناك رفض للافكار الانهزامية والمحايدة التي يبثها الشيخ، والتي تستغل سذاجة وجهل وغريزة الشعب. ولذا عندما كنت أقول له: ولكن يا سيدي أنت أدرى بأننا هزمنا بالعقل والعلم. وسنظل نهزم ما دمنا نقاتل قتال الجاهلية.

ينتفض صارخاً: العلم بدأ بالمسلمين وانتهى بهم. الأقوام الأخرى كانت ترسف في ظلام العصور الوسطى والجهل عندما كان المسلمون يشعّون على الدنيا نور العلم.

وأقول للشيخ: انك تعني علوم الدين.

فيعلو صوته: وعلوم الدنيا أيضاً. من المسلمين خرج ابن سينا وابن حنبل والفارابي وابن رشد والغزالي والأشعري.

أقول بهدوء مصطنع: انت يا سيدي عالم جليل وتعرف أن الذي بقي هو الغزالي والأشعري وهؤلاء علماء دين ومنهم لم نرث غير الطقوس والعبادات والبحث في صفات الله وتجلياته اللا محدودة.

ويسألني الشيخ بامتعاض: ماذا تعني؟

أقول: فيما ورثنا من هؤلاء؟ لا وطن ولا فلسطين ولا من يحزنون. صلاة وصوم وقراءة كتاب الله ودعوات وترتيل آيات في مناسبات الحزن والموت وعقود الزواج والخلافات الشخصية ونوائب الدهر.

يمتعض الشيخ القطناني من دهرياتي وثقافتي الطبيعية والمادية، ولكي يهرب من الحوار، يغمز من جانبي بأن الملحدين والمشركين لا يمكن أن يحرروا فلسطين أو القدس الشريف.

يبدو مهتاجاً وهو يتهم الشيوعيين بأنهم سبب خراب الاسلام وضياع

فلسطين، وأن ستالين اعترف بتقسيم فلسطين بعد أن عقد صلحاً مع المحور .ويقول بغضب : ليعرف القاصي والداني في بلادنا ان الدين والشيوعية لا يتعايشان. وفي غمرة هياجه راح يلمح إلى أن العمليات الفدائية ليست أكثر من عمليات انتحارية تقوم بها مجموعة من الشباب الاهوج المورّط للشعب البريء. ويبدأ الاشاده بمواقف الحاج أمين الحسيني الذي كان عدواً للانكليز واليهود.

على غير توقع بجيء الاعتراض عليه من برهوم الصقر راعي اغنام الضيعة : اسمع يا شيخ أحمد! والله لولا عبد الله والمفتي ما ضاعت فلسطين. بشرفي ما حكاه الدكتور نافذ عين العقل. نحنا والله ما فينا غير الحكي. بنحكي عن الرسول والخلفاء وفعلنا غير فعلهم. أي والله، والله، واحد مثل أبو ذر الغفاري بيساوي مليون رجل مثل رجال زماننا. خلصنا بقا يا شيخ أحمد من هالخلط.

يُباغَت الشيخ من نبرة برهوم الراعي فينبر في وجهه : انت يا غلام يا برهوم. يا بهيم. ماذا تفقه في الدين والسياسة. تعلمتها وراء النعجات؟. والله ما عاد ناقصنا غير الرعيان يعلموننا أمور الدين والدنيا. عندما يتكلم العلماء يسكت الجاهلون والحمير. هل سمعت يا ولد؟

– لا. ما سمعت ! شو أنت رجل علم ولاّ رئيس دولة أو حاكم عسكري!

ويصرخ المختار في وجهه : اخرس ولك برهوم. هادا الشيخ احمد وحقه علينا جميعاً. عيب هادا الكلام يا ولد.

سعدون فياض معلم المدرسة يدافع عن موقف الراعي منتقداً موقف الشيخ وقسوته ثم يركز الهجوم على عبد الله، والمفتي وتحالفه مع الالمان وطموحاته في السيطرة والزعامة، الذي أوصلنا إلى ما نحن فيه هو الانقسام ورغبة كل زعيم في أن تكون كلمته هي العليا. في هذه البلاد كل انسان رأس كبير ومأساتنا مأساة قيادة تجمع الشعب ويحبها الناس. الشعب ضائع والراعي مفقود.

يحوقل الشيخ أحمد ويبسمل ثم تنعقد حاجباه عضباً ويبدأ يمسد لحيته بعصبية. يحسّ بأن العامة تطاولت عليه هو الجليل المبجل والذي لا ينطق إلا بالحق فيتململ في جلسته. يقول وهو يهمّ بالنهوض: يا أهل عينا بوس. أنا عارف ان الشيطان يوسوس بينكم، والمخرب الأكبر في هذه البلاد سيقودكم إلى الدمار. انني اعرف أنه لا كرامة لنبي في ارضه ولكنني أقول لكم إذا لم تتوبوا وتبتعدوا عن المشاكل ووسوسات الشياطين والابالسة فلا تلوموا إلا انفسكم. إن الله ورسوله يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. وفي هذه الضيعة لا أرى إلا الزيغ ونذر الشر والابتعاد عن الصراط المستقيم. قل لن يصيبكم الا ما كتب الله لكم، وقد أعذر من انذر.

□٢□

وفي الوقت الذي كان الشعب فيه مقهوراً وغافلاً، وعائماً فوق الغمر، وكهانه خارج التاريخ. كان المنتصرون الاعداء يمسكون بأعمدة التاريخ والحق الالهي الذي صاغه كهنة أورشليم وقادتها العسكريون من اسمنت الكذب والغطرسة: إذا كنا نملك الكتاب المقدس، وإذا كنا نعتبر انفسنا شعب الكتاب المقدس فان علينا ان نمتلك أرض الكتاب المقدس، أرض القضاة والآباء. أرض اورشليم والخليل واريحا، وعلى العالم ان يفهم ان سيناء والجولان ومضائق تيران وجبال غرب الاردن تقع في قلب التاريخ اليهودي.

القوة التي حوّلت الكذبة والميثولوجيا إلى تاريخ حقيقي، كانت تتحدث، وأمام هذا السبط البربري الجديد، كان علينا أن نتحول إلى عبيد أو عنقاء النار التي تحدثت عنها أمي في مقبرة حيفا.

ولما اخترت طريق الطب لم أكن ناسياً طريق الحريق. كان الرأس يرسم أبداً تموجات العواصف والحقول المزدانة بلون الارجوان. لكن ثرثرات الليالي وقيلولات ما بعد الظهيرة والصلوات واحتساء الشاي ودخان النراجيل والعاب الداما والنرد والحياد عن الشر والأمان الشخصي، كانت تغطي الافق وتعبئ فراغ الساعات والأيام وتغلق مسام الروح وتراكم الرماد فوق النيران المطفأة.

تحت ذلك الافق الرمادي ارتفع صدى الانفجارات التي دوت في غور الاردن، ترددت وكأنها ردّة الروح للاجساد المسجاة في حيفا وعكا والقدس وغزة ويافا ودير ياسين وكفر قاسم والقسطل والبيرة وقبية وقلقيلية، الأجساد التي سقطت تحت الانهدامات وفي البراري الوعرة واعماق البحار.

لقد سطع البرق من الافق الرمادي المتراكم. فهل كانت العاصفة على الأبواب والشعب غافل؟ أم أن البحر الذي كان يبدو ساجياً ومستكناً كان يختلج بثيرانه الوحشية التي استيقظت أخيراً في رهبة هذا الليل القاتم؟.

●

ومع انني كنت أرى اليأس والاستكانة في اعماق الشعب وعبر حياته اليومية الباحثة عن الطعام والمأوى ومواجهة الأمراض والأوبئة والكراهية وفقدان الأرض والسلام الشخصي، إلا انني كنت أرى الاصرار والحقد واحتدام النفوس التي تجيش اجتجاجاً على الوضع غير البشري الذي قُذف نحوه هذا الشعب التائه.

وتحت ستار حياة يومية تبدو عادية وساذجة، كان عليّ أن اظهر رجلاً هادئاً ومحايداً يكرس وقته للبيت والعائلة وكسب المال ومداواة المرضى واجراء التجارب على الاعشاب في المختبر الذي طورت وسائله في قبو بيت جدي.

وفي ظل هذه المظلة الخادعة لم تكتشف زوجتي بأن الغرفة الصغيرة المجاورة للمختبر قد تحولت إلى مستودع ذخيرة يحتوي رشاشاً من نوع كارلوستاف وعبوات ناسفة وصندوق قنابل من مخلفات جيش الاردن التي تركها بعد انسحابه في المغاور، وبارودة دك مفضضة ومسدس باراشوت، وثلاثة كلاشنكوفات روسية وبندقية ناتو هربت بها من السجن العسكري في الاردن.

●

الحوارات التي كانت تجري في القرى التي أمر فيها، واللقاءات المنفردة في أواخر الليالي في البيوت المعزولة أو البراري، بدأت تكتسب أفقاً نوعياً بعد الاشهر الأولى.

لم يكن الشعب في مستوى واحد من فكرة الاقدام على العمل والقناعة بتغيير حياته القدرية التي وصل إليها. كان هناك فلاحون وعمال زراعيون وطلاب، وهؤلاء كانت أفكارهم ومواقفهم تصطدم بآراء المختار والشيخ القطناني وفي القرى الأخرى كنت أرى وأستمع إلى الأصوات التي تجاوزت مرحلة الأنين والبكاء على الماضي والاستسلام لمشيئة القدر المحتوم.

كان الشعب يتململ بحالة جنينية ليخرج من حصاره، وذلّه، وانكساره،

وسقوطه المميت نحو الهاوية. وكان السؤال المقلق: كيف يستعيد الفلسطيني هويته حتى لا يندثر؟.

بعد أسبوع من اللقاء العاصف في بيت المختار عقدنا اجتماعاً في بيت الاستاذ سعدون البعيد عن القرية بحوالي كيلو متر، والمطل على الاودية. حلقة ضمت مجموعة صغيرة من الشباب المندفع لممارسة حياة جديدة، والخروج من هذا المستنقع الذي يتمرغ فيه شعبنا منذ عشرين عاماً.

شيء واحد ادركناه منذ البداية: اننا لسنا وحدنا بعد انفجارات الغور والبلاغات العسكرية التي صدرت.

لم يستمر الجدل طويلاً حول المسائل النظرية والمماحكات السياسية والمواقف من الانهزاميين والمتعاونين مع الاحتلال وطبيعة المجتمع الاسرائيلي. منذ البدء طرح سؤال حول العمل المسلح والعمل السياسي. هل هما متداخلان ومتسقان أم أن الافضلية الآن للقتال؟

وحول مسألة القتال طرحت اشكاله المسلحة ضد منشآت العدو ومفاصله العسكرية ومدنييه في المراكز والمواقع غير العسكرية. وعندما قال الاستاذ سعدون فياض بأن علينا أن نفرق بين الثكنة وروضة الاطفال، قلت باحتدام: اسرائيل ليست أكثر من ثكنة عسكرية مزينة ببعض الرياض والحدائق. وقال العامل باسل الطيراوي وهو من عمال معاصر الزيتون في نابلس: يا عمي. هدول الاسرائيليون يفرقون بيننا وبين المستدروت بشكل كريه. والله فلسطين يا الهم يا إلنا على ما يبدو. ولأنها الآن لهم يعاملوننا كالزنوج في امريكا.

وكان الطالب محي الدين سمعان صامتاً وتبدو عليه ملامح الارتباك، وعندما سأله جعفر جبريل: هاه محي الدين شو رأيك؟ قال: تاريخ النازية يتماثل مع تاريخ اسرائيل. لا أحد بريء من دم شعبنا. أنا أرى ان كل من جاء إلى اسرائيل جاء ليشارك بالفتك بشعبنا. كلهم قتلة في رأيي.

واعترض الاستاذ سعدون: لكن هناك مهاجرين عرفوا الحقيقة، كذلك هناك حركات معارضة للمشروع الصهيوني والهجرة المضادة مستمرة.

وتدخلت : من كان معارضاً منهم إما ان يرحل ويعود إلى بلاده أو يقف معنا. لا حياد في الصراع. جيش الدفاع الاسرائيلي يبيدنا منذ الهاغاناه حتى الآن.

وقال جعفر: من الخطأ أن نأخذ البريء بالمذنب، اسرائيل مجتمع غير متجانس وهناك ناس مخدوعون بالدعاية عن فردوس أرض الميعاد. واسرائيل ليست كلها جيش الدفاع الاسرائيلي.

وقلت معترضاً: شعب اسرائيل هو احتياط جيش الدفاع. عرفنا ذلك وخبرناه في الـ ٤٨ وفي الـ ٥٦ وفي الـ ٦٧. نحن مخدوعون بالمسألة وحتى تزول هذه الخديعة في جدالنا تكون فلسطين قد خرجت من تاريخها العربي إلى الأبد وتهوّدت. واعترض بسام أبو عيطة آذن المدرسة الابتدائية:

ماذا تريد أن تقول يا اخ نافذ؟ هل تقصد ان تقول اننا لا نحب بلادنا ولا نريد ان نفتديها! كيف يهوّدونها ونحن ما زلنا احياء؟ والله حتى تصبح يهودية يلزمهم قنابل ذرية أو غازات سامة يبيدون فيها كل عربي عن سطح هذه الأرض. أما ما دام هناك عربي واحد بيحس أنو فلسطيني لن تكون لهم. يا عمي انتو عم تتعاركو حول جنس الملائكة ونحنا الشعب بدنا سلاح قبل الصلاة على محمد. فيه سلاح بترجع فلسطين ما في سلاح اقرؤوا الفاتحة على قبر فلسطين والله يرحمها.

وعندما توجه الاستاذ سعدون نحوي وقال بأن الدكتور نافذ كضابط سابق يمكن أن يكون المسؤول العسكري، فوجئ الحاضرون.

وشرحت بإيجاز بأن مسألة التسليح ليست عقدة. انما المسألة تكمن في اتفاقنا على العمل السرّي المطلق بشكل منظم، واننا اخوة ورفاق في الحياة والموت، وإذا ما خيّرنا بين الشهادة والبقاء من أجل فلسطين علينا الا نتردد في الموت، وأن البلاد قد دخلت حقول حرائقها، وعلى كل منا، إذا اتفقنا، أن يبدأ بتغيير مجرى حياته اليومية كانسان جديد متأهب للموت الجميل: أجل.

أجل. اسميه الموت الجميل والموت الحق والموت المقدس. نحن دون ان نعانق هذا الموت عبيد. اننا سنعمل ليحيا شعب وتجري الدماء في عروقه وهو سيدٌ وحرٌ. الموت ليس هدفاً لكنه يسهر معنا وينام ويأكل ويشرب، ويوقظ. بالموت سنكون أو لا نكون.

الفصل الرابع

□ اليوميات □

□١□

اليوم رسمت خريطة القرى والمزارع المحيطة بالقرية داخل مساحة عشرين كيلومتراً. على هذه الخريطة عينت مواقع الكهوف والمغاور الجبلية والأحراج الكثيفة، ورسمت شعاب الدروب الصعبة التي لا تصلح إلا للعبور البشري. بين الأدغال والصخور وضعت علامات للأماكن التي تصلح قواعد للتدريب كما حددت المراكز التبادلية ومواقع الرمي.

□٢□

انني مستمر في حياتي اليومية في النهار. اصبح لدي سيارة شيفروليه صغيرة انتقل فيها بين القرى ومعي الحقيبة الطبية. أحياناً انزل إلى نابلس لأشتري حاجيات البيت ولالتقاط الاخبار عن أحوال الناس واوضاع العدو والموقف من العمليات الفدائية.

ومع أن توازني النفسي بدأ يعود بعد اجتماعنا في بيت الاستاذ سعدون واتفاقنا على العمل، الا انني كنت متوجِّساً من أمور مبهمة، ربما تعود إلى طبيعتي السوداوية، وربما إلى الطفولة والآلام التي واكبتني على مدى عشرين عاماً من الموت والهزائم والمنفى وتدهور هذا الشعب في مهاوي الخزي والقصور الذاتي وخيانة الحكام.

ومع ذلك اعتقد انني أدرب نفسي يوماً بعد يوم حتى لا أخيب روح

الكولونيل محمد وثقته بي. لا أريد أن أكون بطلاً، لكنني اشعر بعبء ثقيل أمام أسرتي وشعبي الجريح. انني واقع تحت هذا العبء وهذا الشرط الذي يصادر حريتي الذاتية وملذاتي ورغباتي، ويضعني وجهاً لوجه أمام الموت أكثر مما يضعني أمام الحياة.

□٣□

اليوم استدعاني فجأة الحاكم العسكري الاسرائيلي في نابلس. حضرت سيارة عسكرية فيها اربعة جنود اقتادوني إلى مقر الحاكم العسكري.

ومع أنني خمّنت شرّاً وراء الدعوة، وهجست بتدمير السيارة أمام البيت والفرار إلى الجبال، إلا أنني أبعدت الفكرة وقلت: تصرف بهدوء وبرود الدببة لترى كيف يفكر هؤلاء وماذا يريدون. ومما طمأنني انهمْ لم يدخلوا أو يقتحموا البيت بشكل هجومي. حارس الضيعة هو الذي قدم واخبرني بأن هناك جنوداً اسرائيليين يطلبون منك اصطحابهم إلى مقر الحاكم العسكري. في المقر سألني الكولونيل العسكري: ماذا تعمل يا دكتور نافذ في هذه الأيام؟ وقلت: اداوي الناس. وقال: انت طبيب عربي ومهنتك هواية ولديك الوقت الكافي لعمل آخر.

وعندما استفسرت عن العمل الآخر قال: مختار عينا بوس القديم كما تعلم هرب إلى الاردن رافضاً التعاون معنا. انت يا دكتور انسان معروف ومحترم ونحن نثق بك. ما رأيك ان تكون مختاراً؟

وبابتسامة لا صلة لها باحترامي والثقة بي، قدم لي علبة سجائره وطلب لي قهوة: نحن نرى فيك انساناً مثقفاً يستحق موقعاً أكبر من هذا الموقع ورغم ذلك فالعبرة في التواضع والتعاون الموثوق. والطموح يبدأ صغيراً ثم يكبر. كان الأمر مفاجأة. حاولت أن اراوغ فشرحت له بأنني غير طموح لأن أكون في مركز

المختارية ولا في أي مركز آخر. ورغم انني اداوي الناس الا انني أفتقر إلى الانسجام مع الناس ومعرفة تنظيم اعمالهم. استغرب الحاكم موقفي: ولكن انت طبيب والناس يثقون بك فكيف تقنعني بأنك غير اجتماعي؟.

وقلت: الطب بالنسبة لي مزاج وهواية أكثر منه دراسة اكاديمية. أنا لست خريج جامعة طبية لأنني في الأساس مدرس لكنني اداوي الناس بالاعشاب على الطريقة العربية القديمة. أما على المستوى الشخصي فاسمح لي أن أقول لك، وقد تستغرب ذلك، بأنني رجل فوضوي في حياتي وفردي جداً وأكره المسؤولية الجماعية. هل تصدقني إذا قلت لك انني احب الطبيعة والحيوانات والطيور والحشرات اكثر من الانسان؟ صدقني إذا قلت لك بأن علاقتي بالناس ليست أكثر من حالة هرب من الضجر والملل اللذين اشعر بهما في لحظات الوحدة القاتلة. أنا انسان غير اجتماعي يا سيادة الحاكم وغير مندمج ومصاب بحالة سوداوية تزين لي الانتحار.

حدجني بعينين كلبيتين. بدا مدهوشاً من اجوبتي الغريبة. في عينيه لمحت الشك واللوم والاحتقار. وفي خيالي، وأنا اكز على اسناني، رغبت لو أقتلع عينيه. كنت الآن اطلق النار على رأسه فأشظيه وأنثر دماغه وأراه يختلج وهو يسقط سابحاً بدمائه.

ايقظني سؤاله: دكتور نافذ هل انت وجودي؟

وقلت: باستطاعتك أن تعتبرني عدمياً. الحياة والموت لدي متساويان. انني اعيش يومي وكأنني سأموت غداً.

وسألني عن رأيي باسرائيل فقلت متغابياً ومراوغاً: دولة ديمقراطية وهي بذلك تتفوق على البلاد العربية عدوة الديمقراطية.

وجسّ نبضي فيما اذا كنت سأتعاون مع السلطة الاسرائيلية، فقلت: لن

اقاومكم . ما أرغبه أن تكون لي حريتي الشخصية ، وأن أعيش مع اسرتي بسلام وطمأنينة . انا انسان مسالم يمقت العنف.

قال وهو ينهض اشارة إلى انتهاء المقابلة :

سنكون سعداء لو تعاملت معنا وساعدتنا في حل بعض المصاعب المحلية الطارئة . على كل حال أنا سعيد بمقابلتك . إذا رغبت شيئاً فأنا موجود . آمل ان تراجع نفسك حول موضوع المخترة وتتصل بنا .

□٤□

الأمور تسير على ما يرام . جهزنا مواقع التدريب وحقل الرمي ومستودعات السلاح والذخيرة .

بدأت أدرب المجموعة على القتال القريب والكمائن وكيفية تنفيذ الاغارة على موقع معادٍ والانسحاب والتغطية .

كان ذلك يتم في المنطقة الواقعة بين قرية جماعين وبيت فوريك .

خلال الاستراحة اخبرتهم عن المسرحية التي جرت بيني وبين الحاكم العسكري . ضحكنا للمشهد الخيالي الذي تم خلاله نسف رأس الحاكم استيهاماً

علّق الاستاذ سعدون : احلام اليقظة بوصلة الاعماق .

وقال جعفر جبريل : عملنا في الريف لا في المدن . النابلسيون سيطيحون برأسه قبل أن ننهي تدريبنا .

وقلت : لا ينفصل عمل الريف عن المدن . اينما وجد العدو فهناك الهدف . المهم استمرار الاتجاه نحو الهدف .

□٥□

الجو مشحون. إشاعات وأخبار المقاهي والسهرات تدور حول هرب المختار إلى عمان. وشوشات حول علاقة المختار بالشيخ القطناني الذي دبّر له طريق الهرب لأمر ما. الشيخ القطناني يخطب في المسجد ضد اسرائيل والاحتلال وفي الوقت نفسه يهاجم الأعمال الفدائية المتهورة.

حوارات مستترة ومعلنة بين الفلاحين والأهالي حول الفدائيين. الشعب منقسم بين خائف ومستبشر. دوريات العدو وجواسيسه بدأت تنتشر وتتكثف في كل أرجاء الضفة. تهديدات بالسجن والموت لكل من يتعاون مع المخربين. اغراءات للمتعاونين مع سلطات الاحتلال ولكل من يقدم معلومات وأخباراً عن الفدائيين. اعتقالات ومداهمات في المدن والأرياف. لقد بدأت الاغتيالات والانفجارات تهزّ الضفة، وها هو العدو الذي اكتسح فلسطين وجزءاً شاسعاً من بلاد العرب، يغوص في الرمال المتحركة.

□٦□

اليوم نفذنا حكم الاعدام بجعفر جبريل على باب منزله.

تمّ ذلك بعد مداهمة دورية اسرائيلية لأحد مخازن الذخيرة. أنا وجعفر فقط كنا نعرف موقع المستودع.

كان الحدث مؤلماً لأن الرجل تخاذل. فبعد الانقطاع عن التدريب والتأخر ابتدأ يتحدث باستخذاء ويأس عن اللاجدوى من هذه الأعمال اليائسة والانتحارية ضد عدو قوي مزوّد بأفتك الاسلحة.

في البدء اذ رأينا إهماله وتخاذله حاولنا اقناعه بأن ما نقوم به ليس عملاً فردياً، وهذه الخلايا جزء من بؤر تنتشر الآن في الداخل وفي سوريا والاردن

ومصر، وأن حريق الغابة يبدأ من عود ثقاب، ولا بد من دفع الدم في الشرايين المتجمدة للشعب لينهض من كبوته.

وعندما قال بأن الحوار السياسي أجدى سألناه، وكنا ثلاثة في قبو بيت جدي، عن نمط الحوار الذي بدأه العدو منذ الـ ٣٦ حتى الآن. وقال: نحن ضعفاء واسرائيل انتصرت على العرب جميعاً في كل حروبها.

وسألته: لماذا اقتنعت بالعمل معنا اذن منذ البدء؟ فأجاب: كنت مخدوعاً ومتحمساً.

وسأله باسل الطيراوي: ولماذا فترت حماستك؟ فقال: انا متزوج ولدي أولاد وأريد أن اعيش وهذه الأعمال تدمر حياتي ولا أرى انها تعيد فلسطين.

ضرب بسام أبو عيطة جدار القبو بغضب. قال بألم: «لو كل فلسطيني كان مثلك لاستحق الشعب الذل والموت إلى ابد الدهر. والله سأذبحك يا ابن الكلب. سحب مديته واندفع نحوه. وقفت في وجه بسّام ودفعته عنه: هيه. انت مجنون! كل انسان حرّ في اختيار مصيره. يا أخي الرجل مشى معنا شوطاً ثم أحسّ بعجزه عن متابعة الطريق. اسمع يا جعفر الطريق اصعب وأطول مما تتصور. ان تتراجع هذا شأنك. لكننا نتذرك. انت تعرف اسراراً خطيرة عليها تترتب حياة أو موت مجموعة من اخوتك. إذا أفشيتها ستموت. نحن الآن مع اعدائنا ندخل صراع الموت أو الحياة وفلسطين إما لهم أو لنا. وأنت على ما يبدو لم تفهم ذلك أو أنك جبُنت. أنت الآن حرّ انما لك ان تراجع نفسك. لكن احذر الوشاية.

في الاسبوع الثاني دوهمت المغارة المجاورة لمركز التدريب وصودرت الأسلحة.

وفي اليوم الثاني للمداهمة ذُبح جعفر بمدية بسام أبو عيطة وهو يهمّ بدخول داره.

□٧□

في اعماقي تألمت لموت الرجل. وخلال يومين كنت نهب احاسيس متصارعة. توقعنا المداهمة والاعتقال فقررنا تأجيل اللقاءات واللجوء على مدى اسبوع إلى البراري ليلاً. كنا نراقب بحذر ونتسقط الاخبار ونراقب حركات ودوريات العدو. فكرت ان وجود المستودع بعيداً عن القرية اضاع الشك. لم تحدث مداهمات أو تفتيش للمنازل. تساءلت: ترى هل اكتفى الرجل بالإخبار عن مخبأ الاسلحة وبذلك افتدى المجموعة؟ ام أن العدو ينصب شركاً للايقاع بنا؟

خلال اسبوع ونحن نحيا على اعصابنا. التقيت ببرهوم الراعي في ضاحية القرية. سألته عن الأحوال فقال بأنها عادية سوى أن الشيخ أحمد القطناني تفقدني وسأل عن سبب غيابي عن الضيعة، وانه منذ زمن يرغب لقائي للحديث في أمور البلد بعد رحيل المختار، وهو يتحدث بين الناس بأن نافذ وحده يمكن أن ينظم هذه الأوضاع الفلتانة. ويدير شؤون الناس بعقله الراجح وكلمته المسموعة من الجميع.

□٨□

أنا الآن مشتت بين العمل تحت الأرض «آندكراون» وبين العمل اليومي المكشوف. ومع انني ما زلت اتحرك بحقيبتي الطبية ذات الطبقتين: العليا تحتوي الادوية والعقاقير، والسفلى تحتوي مسدساً وقنبلة يدوية بعد انكشاف مستودع الذخيرة، الا أن الأمور تبدو لي وكأنني أسير في حقل الغام.

صرت أنام كثيراً خارج البيت. في الكهوف والمغاور وأحياناً في بيوت الفلاحين المعزولة والبعيدة عن قريتنا.

في الأماسي الهادئة بين الصخور وخفيف الشجر وتحت السماء العارية، أفكر وأنا مُلقى في احشاء الليل الهادئ، ان كان ما أقوم به يؤدي إلى شيء أم انه

محض اندفاع وراء حلم أبعد من هذه النجوم السحيقة. ها أنذا أخسر حياتي الشخصية ومسراتي جرياً وراء المثال الذي ارتسم في خيالي كما ترسم الصاعقة علامتها في الصخر وهي تشقه. رجل مقذوف نحو الجحيم على أمواج الخطر بينما الآخرون ينامون بهدوء في المنازل الهادئة بعيداً عن الخطر. شعب متعب ومهزوم ومُهان وجائع ومنكوب يريد أن يرتاح ويأكل ويأمن ويستقر ويحب ويغني ويبني حياته بلا عواصف. منذ أكثر من ثلاثين عاماً وهو يدفع الدم والشقاء والتشرد والجوع ضريبة مجانية. من هذا الشعب المنهك والموسوم بالذل والخسران كيف تستطيع يا ناقد علاّن ان تقيم سداً في وجه الريح والموت؟

اية مهزلة بشرية أن تستوهم في هذه العصور المنهارة ان خمسة مجانين من فدائيي الشعب يقلبون التاريخ ويعيدون تركيبه في زمن آلهة القوة والنذير النووي!

عندما أقارن هذا الشعب بالشعوب الأخرى المستعبدة والمتخلفة والتي انتزعت نصرها بكفاحها، اشعر بالراحة والثقة، لكنني في الوقت نفسه احس أن القياس ليس دقيقاً. لكل شعب خصائصه وتركيبه التاريخي وبناؤه النفسي، ولا بد أن سنوات انحطاطنا وانهياراتنا المتواصلة وتعاقب موجات الغزو والقهر الخارجي. ثم هذه الروح القدرية الدينية، قد أورثتنا الكثير من الاستكانة والكثير من الخضوع واليأس. انني مدرك ان حروباً طويلة ستتعاقب. انقسامات ودماء كثيرة ستسيل. معارك وحروب اهلية ستنشب حتى يصبح الشعب شعبين والامة أمتين: شعب الفقراء والمنبوذين والجياع والمهانين، وشعب الاغنياء واللصوص والقتلة والعملاء والطغاة. أمة ينفصل فيها السيد عن المسود، والراعي الظالم ومن معه، عن رعيته.

شيء واحد مؤمن به ومندفع له في الوقت الراهن: الموت.

ليست فكرة النصر ما أنا مندفع نحوها، انما الموت الارادي المنظم والمخطط له. وحدها التضحية في هذه البرهة يمكن ان تحدث الانفجار. انفجار تسمعه الآذان الصماء، وترى ناره العيون الكليلة، ويلسع طعمه المرّ الأفواه التي تثرثر بلا جدوى.

انفجار يصنع حالة قلق وذعر ويقظة وتوجس وخروج من زمن الغفلة والوحل والاستكانة والطمأنينة الخادعة. انفجار ينشر الدماء على الشجر والصخر والأبواب وغرف النوم والشوارع والمقاهي والحقول والخمارات فينعكس رشاش الدم على مرايا النفوس الميتة ليوقظها من سباتها العميق.

□٩□

اليوم فتحت كتاب التوراة وقرأت في سفر التثنية: «إذا أدخلك الرب إلهك إلى الأرض التي انت داخل لترثها استأصل امماً كثيرة من امام وجهك: الحثيين والجرجاشيين والاموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين. سبع امم اعظم وأكثر منك. إذا اسلمهم الرب إلهك اليك فأبسلهم ابسالاً – أي أهلكهم وافنهم – لا تقطع معهم عهداً ولا تشفق عليهم ولا تصاهرهم. تعملون بهم هكذا: تهدمون مذابحهم وتكسرون انصابهم وتقطعون اشجارهم وتحرقون اطفالهم وتسبون نساءهم وترمون بتماثيلهم إلى النار».

كتبت في يومياتي: القوة، القوة، الموت، والدمار، والابادة حتى آخر الدهر. هذا هو القانون الذي استنوه وهذه هي الشريعة التي اختطوها منذ ثلاثة آلاف عام فصارت ناموساً حتى يومنا هذا.

إلى متى سنظل نعاجاً تُذبح في مواسم الاعياد؟

وإلى متى سنظل نندب كشيعة عاشوراء هذا الحسين المغدور؟.

□١٠□

وأنا عائد من منطقة طوباس في وادي الغور، رأيت فلاحاً يدرس حنطته على البيدر. كنت عطشاً فانحدرت نحوه. بعد السلام والشرب جلسنا نتحدث وندخن. سألني عما أفعل في هذه البراري فقلت له بأنني طبيب متجول أمرّ على

القرى والأهالي وأداويهم. انعطف بنا الحديث إلى احوال البلاد والعباد والحرب والهزيمة الصاعقة للجيوش العربية. وروى الفلاح كيف رأى الضباط يفرّون ويرمون اسلحتهم ويختلطون بالرعاة بعد نزع ثيابهم العسكرية حتى لا ينكشفوا من اسرائيل. وعلقت على ذلك بأن هؤلاء كانوا اسوداً علينا في السلم ونعامات تفرّ في الحرب، ونحن الفلسطينيين اليوم واقعون بين نارين: نار اليهود ونار هؤلاء الحكام العسكر.

بعد أن أنس الفلاح مني أخبرني بأنه عثر على بعض القنابل اليدوية التي تركها العسكر وراءهم، وهو خائف من حيازتها فهو لا يعرف كيف يستعملها، ونهض إلى طرف البيدر حيث دفنها تحت أكوام السنابل وأتى بها.

كانت قنابل انكليزية من طراز الـ ٣٦ يستخدمها الجيش الاردني. سألته ان كان يعطيني اياها خوف انكشافها لديه من قبل الحرس الوطني فلم يمانع وقال: خذها يا أخي وخلصني منها. والله كنت احس بها وكأنها أفاع. يلعن ابو السلاح. أنا فلاح ولا علاقة لي بهذه البلاوي التي لا تأتي إلا بالخراب.

قبل مغادرته سألني ان كان لدي ادوية لألم المفاصل والديزانتريا. أعطيته زجاجة صغيرة وشرحت له كيفية استعمالها. قال: ما ثمنها؟

ضحكت وقلت: هذه مقابل القنابل.

اكملت طريقي والدنيا أول المساء في وادي المغطس. فكرت فجأة ان أجرّب قنبلة. في تلك اللحظة سمعت هدير شاحنات إسرائيلية. كنت في بقعة مرتفعة فوق الطريق محتمياً بصخرة مغطاة بشجرة بطم. كانت هناك ثلاث شاحنات تتقدم على الطريق. انتظرت حتى صارت الأولى تحتي على مرمى ثلاثين متراً تقريباً. قذفت الشاحنة بقنبلة فانفجرت اتبعتها بالثانية ثم الثالثة ثم انسحبت صعداً في السفوح. لقد اصيبت الشاحنة وتدهورت في الوادي وسمعت الاصوات والصرخات وانهمر اطلاق النار باتجاهي.

باعجوبة نفذت واتجهت نحو عينا بوس. لم انم في البيت. قضيت ليلتي في إحدى المغاور المجاورة للقرية وفي الصباح ذهبت للبيت.

كانت العملية مرتجلة ومحفوفة بالمخاطر. ماذا لو أن القنابل لم تنفجر؟ لو اصبت وأنا أهرب بين الصخور والادغال؟

ومع ذلك ،صابتني نشوة عميقة. احسست نوعاً من التوازن والثقة الداخلية وانا أواجه العدو عملياً لأول مرة.

لقد كسر هذا التمرين الفجائي خوفي الداخلي من سطوة العدو، وحرّرني.

□١١□

التقيت هذا المساء بأربعة من أفراد الخلية في كهف من كهوف الوادي المجاور لجمّاعين. شرحت لهم قصة الفلاح والقنابل وتجريبها. أُدينت العملية بالاجماع واعتبرت عملاً فردياً أحمق، ومثل هذه الأعمال يقود إلى المهالك وكشف التنظيم المسلح وينبغي تحاشيها.

اعترفت بالخطأ ولكنني شرحت امكانية العمل الفردي الاستثنائي ودوره في العمل الفدائي، وأن المبادرة الذاتية إذا اختيرت بدقة وتخطيط يمكن أن تؤدي دوراً فعالاً. اتفقنا أن نتحاشى ما امكن هذه المخاطرات والاندفاعات الحماسية التي لم يخطط لها ،خاصة ونحن الآن تحت المراقبة ومستودع الذخيرة انكشف. ولما نجر بعد اتصالات مع القيادة في الاردن أو سوريا.

في ختام الاجتماع اتخذنا القرارات التالية:

١ - الحصول على اسلحة جديدة من الاردن سواء عن طريق القيادة أو شراءً.

٢ - اجراء اتصال بالقيادة والتنسيق بين عمليات الداخل والخارج.

٣ – نقل مركز التدريب واقامة قاعدة سرية في منطقة زوّاتا.

٤ – الظهور امام الناس في القرى والمدن بمظهر عادي وعدم ابداء الحماسة الظاهرة للأعمال الفدائية.

٥ – اختيار عنصر أمن لرصد مواقف الناس والعدو والمتعاونين الخونة.

□١٢□

بعد اسبوع من الاتصال بالقيادة واعلامها عن وضعنا، طوّق الاسرائيليون المنزل.

استولوا على سيارة الشيفروليه واقتادوني مرة أخرى إلى مقر الحاكم العسكري بنابلس.

هناك جرى استجوابي بتهمة مساعدة الفدائيين ونقل اسلحة ومتفجرات بسيارتي.

– هكذا اذن. رفضت التعاون معنا لتعمل مع المخربين. وثقنا بك وعرضنا عليك المختارية وها انت تحفر الأرض من تحتنا كالخلد سراً. يا ضياع الثقة يا دكتور! قال الحاكم العسكري.

لقد حاولت دحض التهمة بأنني طبيب لديه عائلة يريد أن يعطي حياته لها وانني لا أفقه في السياسة حرفاً، لكن الحاكم العسكري زجرني واتهمني بأنني أمثل دوراً مكشوفاً لا ينطلي عليه. كنت متوجّساً ان يواجهني باعترافات جعفر جبريل وحادثة قتله، غير انه تحدث عن نقل الاسلحة بين الاردن والضفة والتعاون مع قيادة المقاومة. وقال بأن اسرائيل أقوى من كل العرب مجتمعين فكيف بحفنة من القتلة تعتقد أنها قادرة على تدمير إسرائيل: لقد هزمنا جيوش العرب في ثلاث حروب وسنهزمهم في جميع الحروب، ومن خلال هزائمهم المتواصلة سيضطرون للركوع

والاستسلام. اسمع يا دكتور. دعك من المراوغة واعترف. بشرفي العسكري إذا اعترفت وتعاونت سأبرئك.

وقلت: في المقابلة الأولى اعترفت لك بصراحة ما أنا وكيف أفكر. والآن أقول لك بالصوت العالي: إلى الجحيم والشيطان الفدائيون والعرب وفلسطين. صدقني انني أكره هؤلاء الحكام العرب الجبناء الذين لا يستحقون الا الاحتقار. (وأنا أكذب، بدأت اطلق النار على رأسه وصدره وانثر دماغه على الحائط، كان الآن وراء مكتبه مدرعاً بقوته وانتصاراته ونياشينه وهاتين العينين الزرقاوين الراغب في سملهما).

ضحك باستهزاء: ها انت تتغابى مرة أخرى وتمثل دوراً هزلياً لا ينطلي علينا.

وقلت وأنا أتوجس المواجهة بحادثة قتل الخائن وكشف مستودع الذخيرة، مقامراً بحياتي: أثبتوا التعاون مع المخربين وأنا مستعد للسجن المؤبد أو الإعدام.

وسألني: لماذا رفضت التعاون معنا وأن تكون مختاراً؟.

– لأنني انسان محايد ومسالم ولا أريد أن أزج بنفسي في الصراع الدائر. ثم استطردت أشرح موقف المواطنين العرب الذين يخشون الفدائيين وانتقامهم إذا ما تعاونوا مع السلطات الاسرائيلية، وأن هؤلاء المواطنين يعيشون بين نارين ولذلك يفضلون الحياد: ابتعد عن الشرّ يبتعد عنك هذا ما تقوله الحكمة العربية.

– انت تعتقد ان اسرائيل شرّ؟

– لا. لم أقصد ذلك. انما قصدت الحرب. فلسطين على مدى العصور كانت أرض المعارك والمآسي. وفي اعتقادي انها كانت حروباً لا مجدية جرّت الويلات والدمار على اليهود والعرب، ونحن شعب هذه البلاد كنا دائماً ضحايا هذه الحروب اللامجدية. لماذا لا نعيش بسلام ومحبة فوق هذه الأرض التي انهكها القتال والدم. (كنت ارى الآن دمه يختلط بخريطة اسرائيل ونجمة داوود

المعلقة على الحائط وراءه).

وتراخى غضبه وحنقه وهو يرى هذه المسرحية الانهزامية: ولكن هل تعتقد ان الحياد ممكن في هذا الصراع؟

– الحياد ممكن بالنسبة للحرب. الحرب هي الدمار الشامل للبشرية وأنا من دعاة السلام. «كان الآن يصرخ ويسبح في دمائه وأنا مستمر في اطلاق النار عليه».

– اختيار اسرائيل التي تريد السلام وتخوض الحروب من أجله يتطابق مع افكارك. قل لي: لماذا لا نعمل معاً وتتخلى عن هذه الشيوعية القذرة التي تجرثم رأسك؟

كانت عيوننا الآن تتواجه. هو في موقع القوة والسطوة والحقد، وأنا في موقع الاتهام والضعف. وكان قلبي يدق موثقاً جسدي إلى الكرسي حتى لا أثب وأنشب اظفاري في وجهه وعينيه وأنتزع لسانه.

قلت بهدوء ما قبل الزلزال: سيادة الحاكم انا لست شيوعياً ولا فدائياً ولا سياسياً. عدا زوجتي واطفالي وطعامي وكسائي وخمرتي وكسبي وتجارتي طظ على العالم. تمرمرت كثيراً من الحرب والموت ونفسي عافت الشقاء. بصريح العبارة أقول لك انني مؤمن بشيء واحد: إذا هبت رياحك فاغتنمها. وعما قريب سأغادر هذه الفلسطين الملعونة إلى بلاد الله الواسعة بعيداً عن كل هذه المصائب.

قال الحاكم وهو ينهض: لم يقنعني كلامك رغم رائحته المنعشة. ثمة روائح كريهة تستبطنونها في مؤخراتكم. امثالك من الانتهازيين والعدميين قد لا يساوون أحياناً أكثر من الركل في المؤخرة أو طلقة الرحمة. اخرج الآن. السيارة صودرت وانت تحت المراقبة. تأكد ان اسرائيل قادرة على ان تحصي انفاسك. وسأكون مسروراً ان اسمع عنك وأن أراك في الخمارات والملاهي أكثر من السماع

عنك في كهوف الجبل. انت رجل مثقف والمثقفون يعرفون الدروب المستوية التي لا تؤدي إلى الحفر والمهاوي.

عندما خرجت كنت حزيناً لشيء واحد: انه ما زال حياً.

□١٣□

كنا نعتقد بأننا ندفع الدماء الحارة في العروق الباردة. وفي ذلك الوقت ما كانت المسألة لتتجاوز ذلك رغم الاعتقاد الذي بدأ يسود في اوساط الشعب وفي مخيلته عن قوة العمل الفدائي المسلح وفعاليته البديلة عن الجيوش العربية المندحرة. لقد بدأ الناس في كل الأرض العربية ينسجون الاسطورة الخارقة عن الفدائي - الشبح الذي يضرب ويهرب دون ان تناله دوريات جيش الاحتلال المنتشرة كالذئاب الجائعة في شوارع وساحات المدن والاغوار وعلى الحدود. كانت اصداء الاسطورة تتردد كدوي الرعد، وكان هذا الدوي يشد العزائم ويزيل غبار الخوف المتراكم في النفوس معيداً الثقة للشعب المهزوم والجريح.

□١٤□

بعد اسبوع اجتمعنا. شرحت للشباب ما حدث معي في مقر الحاكم العسكري، وقلت بأن العدو على ما يبدو ترده تقارير غير دقيقة دون أن تكون لديه وثائق أو وقائع، وأن جعفر لم يعترف على ما يبدو إلا على المستودع. العدو يستشعر الخطر لذا يضع كل الشعب في حالة اتهام. بالامكان ان نمثل الآن بشكل ما ادواراً مضادة للفدائيين امام من نشتبه بهم أنهم أعوان أو جواسيس أو متخاذلون.

اعتقد أن علينا تحاشي الارتجال والحماسة الدونكيشوتية التي تكشفنا.

حدث جدل حاد بيني وبين الطيراوي حول الازدواجية بين القول والعمل.

كان رأيه ان هذا التناقض يفسح مجال التطاول والمساومة أمام العدو الذي لا يفهم قانون الحياد ، كما أن تصريحاتي المعادية ضد فلسطين والفدائية في مقر الحاكم مسجلة ، وستستخدم ضدنا أمام شعبنا وبذلك يفقد ثقته بنا .

أوضحت أننا في حالة حصار وخطر مميتين ، والعمل السرّي لا يحتمل الخطأ ولو لمرة واحدة . حادثة جعفر نجونا منها بأعجوبة . لو اعترف بشكل كامل لكنا الآن في السجن ، لكن يبدو أنه افتدانا بالأسلحة وقتله كان ارتجالاً متسرعاً .

وقال الطيراوي : لماذا تُستدعى مرتين إلى مقر الحاكم إذا لم تكن مكشوفاً ؟

– انهم يشتبهون بي وأنا مراقب . من أجل ذلك أقول لنمثل دوراً معادياً يوحي للعدو بالثقة . انني اقترح ايقاف العمل الآن أو الانتقال النهائي إلى الجبال للتمركز في القاعدة .

– الاقتراح الأول سلبي والثاني متطرف ومرتجل . قال الطيراوي . وسأل سعدون فياض : اذن !

وردّ الطيراوي : لا أدري . نافذ أيقظ الدب وهو المسؤول . دائماً يرمينا في المضائق .

وقال أبو عيطة : لا بد من الاتصال بالقيادة .

وقلت : هذا صعب في هذه الظروف . القيادة الآن تاركة لكل الناس المبادرة .

قال الطيراوي بنزق : إما ان نتابع العمل أو كل منا يصلّي على نبيه . قسم يختفي والآخرون يمارسون حياتهم اليومية واتصالاتهم بحذر . هذا ما أراه الآن .

– إذا استطعنا تأمين الاتصال بعمان خلال اسبوعين تسير الامور بشكل أفضل .

قررنا أن أحاول الاتصال بالاردن بالطريق التي أراها مناسبة .

□١٥□

وكان على الجرح ان يظل في حالة نزف ليتواصل الالم، وتتكسر طبقة الجليد الجاثمة فوق سهب النفوس اليائسة. ان الصدمة القوية لا بد أن ترجّ الاعماق ليستيقظ الذين اصابهم ذل وعار بلا حدود. ومن تلك البوابات المفتوحة والنازفة، والمستباحة، كنا نحاول الدخول والسير البطيء على الصراط المودي إلى الجحيم. أنا كنت ممروراً أرى الجانب المظلم من الكرة الأرضية وأعيش فيه، وكنت اعتقد ان الدماء وحدها الاضاءة. كنت اراها تفتح الطريق أمام هذه القبائل المشردة تحت الشمس والتي ما عاد لها من يهديها. وكان ذلك هوساً على نحو ماءكما كان صائباً على نحو آخر. كانت القوانين الموضوعية ضائعة ومسحوقة تحت سطوة الأقوى. وهكذا بدت قوانين الاحتمالات والاستثناءات هي السائدة. كل الدروب تودي إلى الجنة أو النار ما دامت فلسطين قد ألغيت بقانون الغاب، وتحولت خريطتها إلى أرض من الوحل والدم والمقابر.

«ليس هناك متسع لشعبين على أرض واحدة. إذا ظفرتم بهم فأبيدوهم عن بكرة أبيهم كما يُباد قطيع من الخنازير حوصر في حظيرة. الرجال والنساء والاطفال والمنازل والذكريات والشرائع والأحلام والتقاليد، والله. لكي تعيش اسرائيل لا بد أن تموت شعوب الأمم القديمة والغريبة. تموت بحد السيف الذي صنعه الملك الرب من قوة الفولاذ ولمعان الشمس».

□١٦□

بعد اسبوعين من استجوابي القوا القبض على ابن خالتي سرحان. وضعوه في سجن نابلس وحكموا عليه بثماني سنوات بتهمة التعاون مع الفدائيين. لم يكن فدائياً لكنني ورطته بنقل رسائل إلى الاردن. كان يعمل مهرباً بين الضفة وعمان.

سرحان كان يعيل الأسرة بعد حجز سيارتي. بعد حبسه واجهت الأسرة الافلاس والجوع.

قلت لنفسي : عضّ على الجرح يا ولد. ها هم أولاد العاهرة يحاصرونك ويدفعونك إلى الهاوية لتكشف أوراقك ومن ثم يجهزون عليك.

اخبرتني زوجتي بذلك في ليلة من ليالي نزولي من الجبل. وفي غمرة حزنها سألتني من أين سنعيش بعد اليوم وأنت بعيد عنا معظم الاوقات.

قلت : لا عليك يا امرأة. أنحت الصخر وأعتشب البراري لأطعمكم. الشعب معنا ولن يتخلى عنكم. وسألت متوجّسة إن كنت سأستمر في هذه الدروب المهلكة. وقلت : مشينا ولن نتراجع. الرجوع عار وخيانة. وسألت : ولكن ماذا جنينا؟ وقلت : الشقاء والمرارة والموت. وقبل ذلك الشقاء والمرارة والتشرد والموت.

وقالت : ولماذا يستمر هذا؟ وقلت : افهمي انه مكتوب على وجه الفلسطيني ان يظل تائهاً وشقياً حتى يلقى سيفه الذي أضاعه قبل أكثر من ثلاثين عاماً. وقالت : انت تحمل الدنيا على ظهرك والناس مرتاحة. وقلت بحنق : انت لا تعرفين ماذا يجري. ما يبدو الآن هو الخطأ، والصواب يأتي فيما بعد. إما أن نفنى أو نعمل هذا الذي نقوم به. الموت هو قيامة الفلسطيني. وتهدجت بين الالم والبكاء : لكننا نجوع ونمرض ونحن مهددون. انظر. البنت مريضة منذ شهر ونحن لا نكاد نملك ثمن الدواء.

وصرخت بصوت مجروح : كفى. كفى. الزمي الصمت ولا تطرحي بعد اليوم اسئلة. إذا كان البيت والاولاد يثقلون عليك ارحلي إلى اهلك. انني اعرف طريقي والنجوم التي تهديني كما أعرف قبري.

□١٧□

مع الغروب وانا اسير في ضواحي القرية سمعت وقع خطوات تبعها صراخ عميق. تلفت إلى الوراء. ابنة الجيران تعدو وتلوّح بيدها. توقفتُ حتى وصلت :

ما الخبر؟ كان في وجهها نذير خوف واستغاثة. قالت: الطفلة تعاني نزيفاً حاداً وأمها تبكي ولا تعرف كيف تتصرف.

عدت إلى البيت سريعاً. جسستُ نبض الطفلة التي لم تكمل عامها الأول. كان النبض بطيئاً ولون وجهها كلون غضار الأرضْ. وضعتها في حضني. كان واضحاً من ذبول عينيها وحشرجاتها المتقطعة انها تنازع. لم أكن املك فلساً. خجلت ان اطلب مالاً من الجيران والاصدقاء. الناس تعتقد انني ميسور. ولدي سيارة. سهرت على الطفلة الممددة بين ذراعي حتى منتصف الليل. حاولت ايقاف النزف الرئوي ببعض الادوية المتوافرة لدي.

قبل الفجر خفق قلبها خفقان عصفور اصابته طلقة في القلب. اختلجت في حضني خلجات متواترة ثم شحب لونها واغمضت عينيها.

مع الفجر فتح الطائر الصغير الجميل عينيه بهدوء ثم فتح فمه ليفسح المجال للهواء. شيء ثقيل كان يضغط الصدر لم يلبث ان خرج من الفم وطار باتجاه الفضاء والغابات. طار إلى الأبد.

□١٨□

غسلنا الطفلة وكفناها بوجه اللحاف الأبيض وحملناها إلى المقبرة.

في المقبرة صلّى الشيخ القنطاني على الجثمان.

بعد الدفن اقترب مني وعزاني مع بقية اهالي القرية الذين حضروا الجنازة. بعد العزاء انفرد الشيخ بي وأسرّ بأنه يرغب مقابلتي على انفراد لأمر خاص ومهم وعاجل.

□١٩□

في تلك الليلة جافاني النوم. لم أكن حزيناً بقدر ما كنت منقبضاً. خرجت

ليلاً اسير على غير هدى. كان القمر بدراً والأشجار تلمع تحت اشعة القمر، وجبال عيبال وجرذيم تبدو على البعد كأشباح اسطورية. جسدي كان يرتعش ارتعاش الاغصان تحت الريح. من الفضاء والأرض ولمعان الأشعة كنت اسمع اصواتاً غريبة. اصوات مجنونة، نائحة. دويّ الأصوات كان يطوقني، يكاد يقذف بقلبي من صدري. ما كنت مكتئباً ولا تعباً. احساسي كان احساس الوحش الساقط في مصيدة حُفرت في اعماق الأرض. في تلك الحفرة مرّت اطياف القتلى فوق أوراق الشجر وفوق السماء والبحار وتحت الانقاض. كنت عاجزاً ووحيداً في تلك اللحظة. لماذا لست قادراً أن أفعل شيئاً من اجلهم؟ ولماذا لا أستطيع ان أعيدهم إلى الحياة بدويّ هائل يزلزل الأرض؟ كان الدويّ في رأسي. وكان انقباضي ناجماً عن هذا العجز العاري. العجز الذي لا يستطيع تجسيد الدوي بضربة واحدة يتخلخل منها توازن النجوم والقمر والأشعة والصخر والشجر، وكساح هؤلاء الناس. لم ار نفسي إلا وأنا أمام مغارة الذخيرة والأسلحة التي اخترناها في احد أودية زوّاتا.

نمت في المغارة حتى انبلج الفجر.

مع اشعة الشمس الأولى انحدرت نحو القرية ومعي مسدس وقنبلة مهيأة للتوقيت.

□٢٠□

كانت الساعة العاشرة والنصف عندما وصلت نابلس. عرجت على حانوت واشتريت علبة دخان ثم انعطفت في شارع فرعي. تناولت من احد المطاعم سندويشتي فلافل. بهدوء زمقت إلى مدخل عمارة وصعدت الدرج. اخرجت القنبلة وضبطت توقيتها ثم لففتها داخل إحدى السندويشتين وعدت ونزلت الدرج.

الذين يعرفونني كان يقولون بأن اعصابي بترولية سريعة الاشتعال. في ذلك الضحى، وأنا أتجه نحو هدفي، وضعت اعصابي في احشاء القنبلة. في الطريق

من عينا بوس إلى نابلس كانت الطفلة تتراءى لي وهي تختلج بين يدي ثم وهي مكفنة ، ثم وهي تهوي في أعماق الأرض . لقد جاءت ورحلت كالحلم ولما تر الدنيا . كان الهدف الذي أتجه إليه يتطاير في رأسي شظايا وذرات تغطي كل مساحة المدينة .

مع اقترابي من مقر الحاكم العسكري ، خفق قلبي .

ضغطت أسناني على السندويشة الفارغة التي أقضمها . رصدت المبنى المحروس بجولتين بعيدتين من عدة زوايا . قدرت أنني لن أستطيع قذف القنبلة إلا من مكان بعيد نسبياً وغير مؤثر . فكرت بتأجيل العملية وبعواقبها وابتعدت نحو مقهى قريب . طلبت شاياً ونرجيلة وبدأت أراقب من نافذة المقهى حركة الحرس من الجانب الخلفي للمبنى . قست مسافة الرصيف الذي يتحرك عليه الحرس وسرعة خطواته من محرسه الخشبي حتى الطرف الثاني من الرصيف . كان متوسط الوقت بين الكابين وطرف الرصيف لا يتجاوز الثلاث دقائق . هذا المعدّل الوسطي رصدته خلال اثنتي عشرة حركة مزدوجة . مرة واحدة خلال هذه النوبات التفت الحارس إلى الوراء .

اخرجت قلماً وورقة وكتبت مشروع رسالة مشوّشة ووهمية لابنتي التي ماتت : عزيزتي نهلة : وانت تدخلين الآن عالم الملائكة ادخل أنا عالم الابالسة والنيران . تحملك الآن الغيوم البيضاء فوق مروج بيضاء إلى جنائن الملائكة البيضاء ، وتحملني الآن الرياح السوداء في الزمان الأسود شوقاً إلى الأيام البيضاء . أنا لست داخلاً في الالتباس ولا في اختلاط الالوان ، ولكنني أقف على حافة الأرض الرخوة ، أرض الوحل التي اجتاحها الطوفان ثم انحسر عنها تاركاً في خلايا ذراتها كثافة من الرطوبة تستعصي على اختراق الشمس .

ان ما يحدث لا يأتي بالنصر المؤزر ، لكنه يضع المومياء تحت الوهج والتحلل وبذلك تفرز الخلايا القادرة على الحياة من الخلايا الميتة . ان في الأمر نوعاً من الاختبار لقطبي الحياة والموت داخل جسد وفي اعماق شعب . ومع أن

الاختبار كان طويلاً وممتداً في التاريخ منذ عصور السقوط الأولى، إلا أن هذا ما يزال ماثلاً حتى الآن وحتى عصور قادمة.

عزيزتي: استطيع أن أقول بأن العدو لم يكن قوياً كما قال الحاكم العسكري لي بأن اسرائيل لا تقهر. انما نحن كنا شتاتاً واعداء ومحكومين بحفنة من الكلاب الجائعة والمسعورة، فكان العدو قوياً بهم.

وفي ذلك الوقت كان بامكان الحريق وحده أن ينبه للدمار الذي اصاب الخلايا. كان بامكانه ان يخلخل الاستقرار الكاذب والمؤسسات الكاذبة والسلام الجرثومي الذي فتك بخلايا الدم وأفسدها.

كانت الرسالة خديعة أو تسلية بينما الهدف هو أن أرسم على الورق تحتها تخطيطاً للحركة والزمن اللذين يستغرقان تنفيذ العملية والهرب. وهكذا رسمت، تحت توطئة الرسالة الوهمية، خط سير الانطلاق ومسافة الوصول إلى النافذة الخلفية وقذف القنبلة والزمن اللازم، ثم حركة الانعطاف قبل انتباه الحارس والولوج إلى حانوت مقابل المقهى الذي اجلس فيه الآن، ثم الخروج من الحانوت والاختلاط العفوي بالناس والسؤال عما حدث.

لم يكن الزمن كافياً. كنت بحاجة إلى خمس دقائق لتنفيذ الخطة.

الساعة تشير إلى الثانية عشرة. احرقت الورقة التي كتبت ورسمت عليها ثم سحقت رمادها تحت الطاولة. نهضت واتجهت إلى باب المقهى. اشعلت سيجارة وانعطفت يميناً نحو الرصيف المقابل. سرت بهدوء خلف رجل يمسك بيد طفلته. على الرصيف المقابل الملاصق للمقر يسير الحارس وظهره إلي، وبندقية الناتو معلقة على كتفه. لم أكن قد حسمت الأمر في التنفيذ أو التأجيل. رغبة العملية كانت طاغية وكل حواسي واقعة تحت سطوتها. لكن الفشل سيدمر كل شيء، وكنت مصمماً على النجاح. كانت المسألة امتحاناً لعقلي وقدرتي على كسر السطوة والخوف. لقد وصل الحارس إلى محرسه في الزاوية الغربية وبدلاً من

عودته استراح داخل الكابين. خلال ثوانٍ تفاعلت الاشياء في ذهني. معادلة الزمن حُلّت فاستوليت على الدقيقتين اللتين احتاجهما. وثبت من الرصيف الذي أسير عليه إلى الرصيف المقابل، ستر الجدار الجانبي للكابين بيني وبين الحارس، وكمن يسير في الهواء كنت أمام النافذة الخلفية. أخرجت السندويشة وقضمتها فنزعت امان القنبلة وقذفت بها من النافذة ثم طرت بين الرصيف والمنعطف الذي قذف بي إلى دكان بائع مرطبات.

حدث الأمر كحلم لكن الانفجار كان اليقظة.

□٢١□

مساء كنت في عينا بوس. بدوت لزوجتي منشرحاً وفي حالة من الغبطة لم تألفها. انجلى الكابوس عن صدري. كانت الدنيا في عيني جميلة. قبلت زوجتي وطفلي الصغير. حملت الطفل وأرجحته يميناً ويساراً ثم قذفته في الفضاء وتلقيته بين ذراعي. كان الطفل سعيداً، بسمته وزقزقته فتحت ملايين الازهار في حدائق قلبي المحتقن بينابيع الدم.

سألتني زوجتي: هاه. مالك؟ من غير العادة!

قلت: اليوم انا مغتبط. ألديك خمرة؟

غنيت للطفل ودحرجته على الفراش. داعبت ثغره وأنفه وحككت له تحت ذقنه فثغا وضحك، وإذ حملته إلى سريره بال عليّ منتشياً بفرحي.

صرخت بالأم: تعالي خذي طفلك البوّال.

قالت: أحضر لك العشاء. دبّر راسك معه.

وأنا أهز سريره لينام جاءتني اصوات الذعر وصفارات الانذار وعربات

الاسعاف. كنت أسير بهدوء في الشارع الرئيسي وأدخن. سألت المارة عما حدث فقالوا هجوم كبير للفدائيين بالرشاشات والقنابل على مقر الحاكم العسكري واشتباك بين الفدائية واليهود في الشارع العام.

كانت وجوه الشعب طافحة بالحبور والحنق تحت قشرة الخوف والتوجس.

لقد ضُرب الوحش في وكره فاهتز الجدار الحصين. بالامكان الآن التنفس بعمق كما بالامكان احتساء كأس من الخمر بعد هذه الضحكة العميقة لطفل يستحق ان يحيا.

الفصل الخامس

□ زمن الحلم والخيانة □



بعد عملية ضرب مقر الحاكم العسكري في نابلس، والتي نُفذت بقرار فردي وثأري، انطوت صفحة مهتزة من حياة نافذ علاّن. الحكيم العربي الذي يداوي الناس بالأعشاب والذي يخطط وينظم سرًّا ثم يقوم بالتنفيذ استجابة لرغباته ولتموجات أقواس الغضب، والدم التي تجتاح أعماقه.

صار اسمه الحركي: «الجبل»، بعد أن كشف العدو حركاته وعلاقته بالعمل الفدائي المسلح وبث العيون لرصده وصيده حياً أو ميتاً.

سكن الجبال والكهوف زمناً وقام بعدة عمليات خاصة، وما كان ينزل عينا بوس إلا ليلاً بعد التأكد من خلوها من الخطر.

لقد سمته اسرائيل: ذئب جبال نابلس الكاسر. وقال عنه الحاكم العسكري الذي نجا من قنبلته: لم يخدعني رجل في حياتي كما خدعتني هذه الأفعى.

خلال شهر استطاع ان يعيد تنظيم مجموعته وزيادتها إلى ستة عناصر جديدة، مركز تدريبها في منطقة جمّاعين. وخلال هذه الفترة اقام علاقات مع مجموعات أخرى تشكلت في الداخل من فدائيي الضفة أو من الذين هربوا عبر الاغوار من الاردن بعد الـ ٦٧.

وفي تلك الفترة استطاع اقامة جسر اتصال مع القيادة في الاردن التي زودته بالسلاح والمال والتعليمات، وتركت له المبادرة في العمليات بالتنسيق مع المجموعات الأخرى.

في بيت سرّي بعيد عن عينا بوس يلتقي الجبل مع الشيخ أحمد حسن

القطناني ويتحدثان في شؤون الشعب واحواله فيبدوا الشيخ عالماً بأسرار ما يجري، ويحكي للجبل معاناة الشعب والآلام التي وصلت حدود الانفجار. يتوجس الجبل من هذا الانقلاب المفاجئ، لكن الشيخ المتحمس يطلعه على أسرار خاصة ويعطيه كلمة السر بينه وبين القيادة ويفاجئه باتصاله بالقيادة التي التقى بأحد أعضائها، ثم يخبره بأنه حمل له ولمجموعته اموالاً وأسلحة، وأن بيت الشيخ البعيد عن الضيعة يمكن اعتباره أحد المقرات السرية له عندما يشعر بالخطر.

وفي تلك الليلة استفاض الشيخ القطناني بالكلام عن خديعة السلام مع عدو الدين الذي لا يحفظ عهداً ولا يعرف غير سلام السلاح والموت:

هؤلاء يا ولدي من زمن محمد، صلوات الله عليه وسلم، اعداء لنا. حاربونا منذ خيبر وعاي وحاصور وأريحا حتى اليوم. سلالة ولغت في الدم من زمن آخاب حتى يبغن ولا يرويها إلا الدم. انت تعرف انني كنت أدعو للهدوء والسلام والعقل. بعد اتصالي بالقيادة انقلب رأسي. بل قل توازن عقلي. لقد قالوا لي: انت يا شيخ أحمد رجل عارف وإليك يرجع شعبنا في أمور دينه ودنياه. وأنت تجتمع بآلاف الناس ولك تأثير غير محدود. الا ترى ماذا فعلت بنا الفئة الباغية منذ ثلاثين عاماً. انت يا شيخ أحمد تتابع رسالة الشيخ القسام ورسالة اجدادك القطنانيين العلماء الذين لم يخشوا في الحق لومة لائم. هذا شعبنا يقوم فلماذا لا تكون أحد اعمدته وتأخذ بيده في الشدة فيحسب لك ذلك يوم القيامة. لا تخف من انكشاف امرك فهناك من يحميك ويغطي عليك. رسالتك الدينية سترك فتظاهرْ بما كنت عليه في الماضي وفي السرّ ساعد رجالنا بما تستطيع. قلت: اعطوني فسحة للتفكير. ذهبت إلى الفندق وطوال الليل وأنا أفكر بما جرى. واجهت ضميري وتحاسبنا. وازنت بين خسائري الشخصية ومكاسب شعبي. رجحت موازين الشعب المطعون والمشرّد فقررت أن افتدي بلادي بامكانياتي المتواضعة وأنا اردد: مرة واحدة تعيش يا رجل فإما كريماً أو نذلاً والخيار بينهما أمر لا بد منه. لقد انتهى زمن الحياد.

في اليوم الثاني وافقت. اعطوني اسمك الحركي وكلمة السر وزودوني ببعض الاموال والاسلحة المتواضعة. أنا الآن واحد منكم وحياتي نذرتها لفلسطين.

عندما خرج الجبل من مقابلة الشيخ كان رأسه يدوي ويتماوج بين موقف الرجل في بيت المختار وموقفه الآن. في بيت المختار قبل أشهر كان الشيخ يهدد ويتوعد ويحذّر من مجابهة العدو، والآن هوذا فجأة يتغير وينتقل من السلام والحياد إلى الحرب. كيف حدث ذلك؟

وفكر الجبل، وهو في طريقه إلى رفيقيه اللذين كمنا قريباً من البيت المتفرد، بأن الثورة المسلحة هي معجزة الشعب، وانها قادرة على نقل الجبال من اماكنها. ان كسب رجل دين في موقع ومكانة الشيخ القطناني كجسر اتصال مع القيادة، عنصر تمويه لا يخطر ببال اسرائيل الشك فيه.

كان مغتبطاً عندما وصل الكمين الذي وضعه لحمايته. نادى الجبل مرتين فنهض الطيراوي وأبو عيطة من وراء صخرة واتجهوا نحو الجبال.

في المساء نفسه عقدت المجموعة اجتماعاً بعد العشاء تحدث فيه قائد المجموعة عن لقائه بالشيخ القطناني وموضوع الأموال والاسلحة المرسلة من القيادة.

بعد شرح تفاصيل اللقاء الذي ازال أي التباس أو شك حول الموقف الجديد للشيخ انطلاقاً من الوقائع التي سردها، تقرر ان يكون الاتصال معه فردياً، وأن يكون بيته وكراً احتياطياً في اوقات الخطر والمطاردة، وأن يركز الشيخ في خطبة الجمعة ولقاءاته الظاهرية بالشعب على الجهاد والشهادة ومواقف الرسول والصحابة في الأيام الأولى للدعوة، والمعاني الانسانية للاسلام الذي جاء للناس كافة دونما تمييز بين العرب والاعاجم.

□ المعركة □

معركة جمّاعين كانت المفاجأة التي صعقتنا.

خلال استراحة التدريب حدثت المفاجأة تحت الضحى. كنت، اداوي تحت شجرة زيتون أحد الفدائيين الملسوع بحشرة الدلم الناقلة للحمى. منطقة التدريب تقع بين كروم الزيتون. جوارنا مجموعات أخرى تتدرب على الرمي. قائد إحدى المجموعات كان ذاهباً إلى مستودع المتفجرات. الوقت صيف والساعة تشير إلى الساعة العاشرة والنصف. مستودع الذخيرة كان في اسفل الوادي المغطى بأغصان الزيتون الكثيفة. قائد المجموعة الذي هبط السفح راكضاً رأى نفسه بغتة بين دورية استطلاع اسرائيلية كانت تستريح تحت اشجار الزيتون. هو انصعق من المفاجأة وهم أيضاً. لا هو اطلق النار ولا هم. لقد بُوغتوا هم أيضاً. قبل ان يستردوا مفاجأتهم وثب من بينهم وهرب صاعداً بين كروم الزيتون.

بعد دقائق بدأ اطلاق النار بشكل عشوائي. كان رأيي الأ نرد على النار وأن ننسحب من منطقة الاشتباك. المعركة غير متكافئة ولا ينبغي كشف مواقعنا. الدورية الثانية ردت على الاسرائيليين وفي غمرة الحماسة ردّت مجموعتنا واشتعل الوادي.

كانت الدورية الاسرائيلية تتجاوز الـ ١٠٠ عنصر ومجموعتنا اثنا عشر فدائياً بينما المجموعة الثانية لا تتجاوز العشرة.

بدأ القصف بالهاونات وبعد دقائق حلق الطيران وبدأ قصفه العنيف.

تحولت كروم جمّاعين إلى جحيم من النيران وابتدأ استشهاد افراد مجموعتنا .

كنا محاصرين في مساحة لا تتجاوز الخمسين متراً ،وكانت رمايات المدافع والطيران تطالنا في بقعة لا تحميها إلا الاعشاب والاشجار وبعض الحفر التي لجأنا اليها وراء الحجارة .

اختلطت مواقع الاسرائيليين بمواقعنا فأصابت رمايات الطيران الدورية الاسرائيلية . كنا نسمع أصوات الاسرائيليين وصرخاتهم . سقط لهم حوالي اربعين قتيلاً بينهم كولونيل جوّ قدم ليستطلع ويشرف على المعركة بطائرة هليوكبتر .

ابان المعركة سجل الحاج ابو فارع وعمره خمس وخمسون عاماً موقفاً اسطورياً لا ينسى .

لقد استشهد احد رفاقه قربه وجرح هو جرحاً بليغاً وكان مطوقاً بالاسرائيليين . زحف نحو جثة رفيقه وتناول سلاحه . كنت اراقبه من وراء صخرة أنا والطيراوي . بدأ يصرخ بالاسرائيليين رافعاً علماً أبيض اشارة الاستسلام . كان يستنجد ويطلب منهم انقاذه لأنه جريح . تقدمت منه مجموعة حتى صارت على مسافة عشرين متراً .

فجأة وثب مندفعاً نحوهم وراح يحصدهم بطلقات الرشاش وهو يزغرد ويكبّر ويهتف باسم فلسطين . قتلوه ، وبعد موته جرّوا جثته ووضعوها فوق صخرة واطلقوا عليها صاروخ روكيت لا نشر فتفتت لحمه وعظمه وامتزج بالتراب والصخر .

عشرة من مجموعتنا استشهدوا . أنا والطيراوي تسللنا ونجونا باعجوبة . اتجهنا نحو منطقة عور يف . كانت المعركة كميناً وقعنا فيه وكان الثمن غالياً . لقد خسرنا كل ما بنيناه خلال عام وها نحن في البداية .

ولكن كيف ظهر الاسرائيليون بغتة بيننا ولم نكتشفهم؟ ولماذا تصرّفنا على

ذلك النحو الأخرق؟ وهل هناك اختراق خيانة في صفوفنا ام اننا كنا نعمل بعفوية بعيداً عن الحذر والسرية؟

صدمتني المعركة. انتابني شعور عميق بالذنب. انني اتحمل مسؤولية ما حدث. الطيراوي منكفئ وصامت وأنا مشتت بين صور المعركة وجحيمها، وبين احاسيس الفشل والاحباط والشعور المرير بالهزيمة.

لم انم في تلك الليلة. حتى الفجر وانا نهب تصورات وضعتني بين الهذيان وهاجس الانتحار.

كنت اتذكر المعركة بكل تفاصيلها واراهم وهم يسقطون كصقور حوصرت في اوكارها من الجو والأرض. كانت اصواتهم عميقة وجارحة وهي تصطدم بالصخر وذؤابات الشجر ثم لا تلبث ان تتلاشى في الفضاء العابق برائحة الغبار والنار.

لقد سقطوا بسرعة خاطفة وهم يطلقون آخر طلقاتهم بين الصخور والاعشاب.

كان العدو متفوقاً علينا ولكن المباغتة كانت العنصر الأساسي.

الآن اتذكر انني لم أقد المعركة كما ينبغي. لقد شلتني المفاجأة، ولكن الخلل لم يكن هنا. لا بد انني تصرفت فيما مضى بصورة فردية. كان بامكاني ان اضرب وأنسحب وحدي وكان الأمر سهلاً وممتعاً، وعندما امتُحنت في المسؤولية الجماعية كان الفشل مريعاً. لقد ماتوا وبقيت أنا وهذا الرجل النائم الآن والذي لن يغفر لي. ولكنهم لم يستجيبوا لأوامري بالانسحاب. اخذتهم حماسة الدفاع عن رفاقهم الآخرين فكشفوا مواقعهم. لكن هذا لا يبدل من الأمر شيئاً. انهم هناك بين التلال ممددون تحت هذا الليل وفي الصباح ستشرق الشمس وتدخل اشعتها اجسادهم الممزقة فتتفسخ، وفي الأيام التالية ستنوشهم الذئاب وضباع الجبل والحدآت السود، وأنا ما زلت حياً في هذه المغارة.

ابلج الفجر واشرقت الشمس. استيقظ الطيراوي. رآني مستنداً إلى جدار الكهف وعيناي مفتوحتان. قال: واضح انك لم تنم.

خرجنا إلى بوابة الكهف. كانت الشمس تتلألأ فوق ندى أوراق العشب وشجر البطم والسنديان. فتحنا علبة سردين تناولناها مع رغيف خبز ودخنا بصمت.

كسر الطيراوي الصمت: لا بد اننا أخطأنا. وقلت: خطأ فادحاً.

نبدو الآن تحت هذه السماء الصافية كناجيين من زورق انحطم في عرض البحر.

كان الرجل حزيناً وضعيفاً ومخذولاً. كانت موجات التأنيب قد لامست بعنف شواطئها ثم انحسرت.

وقلت وأنا احشو الجراح بالاعشاب: ومع ذلك لا بد من اعادة البناء من جديد يا طيراوي. ألم ترو لك جدتك قصة النملة وحبة القمح والمرتفع؟ نحن الآن كالنملة التي تعود إلى السفح لتلتقط الحبة المتزلقة منها وترجع بها إلى جحرها في القمة.

بالتأكيد كنت أولّد في تلك اللحظة تفاؤلاً غامضاً، بدا لي أنحرق في هذه الحالة التعيسة التي نحن فيها. انخذال الطيراوي وشعوري الداخلي المهزوم، وهذا النكوص الشبيه بالموت، كلها اعطتني قوة وهمية مضادة للفناء.

– لا أمل. يبدو أنهم أقوى منا.

– ليسوا أقوى إنما..

كان في رأسي شيء آخر لو قيل في هذه اللحظة الخاسرة لبدا مضحكاً واستعراضياً وخالياً من معناه. احجمت عن الافصاح عنه امام الرجل الهش والمكسور.

قلت وأنا امسك صخرة تحت متناول كفي :

ألم تشاهد ماذا فعل أبو فارع؟ أبو فارع هو هذا الصخر الذي لا يفتته إلا اللانشر. هذا ما ينبغي أن نكونه.

وسألته : هل أنت يائس يا طيراوي؟

وقال : لست يائساً. ولكنني اتساءل ماذا يفعل الكلاشن امام الطيران والمدفعية؟ ألم تر كيف أحرقوا الشجر والصخر والتراب. أمريكا وراءهم بكل قوتها وسطوتها ونحن ليس وراءنا أحد. فكيف تقاوم العين مخرزاً!

كان الآن حزيناً ومنقبضاً. لقد تذكر رفاقه الشهداء الذين قضوا بين كروم جمّاعين. بعد لحظة انكفأ فوق حجر وانخرط في بكاء مرير: لقد قتلوهم. قتلوهم أمام عينيك وأنت القائد ولم تستطع أن تفعل شيئاً. دمهم في رقبتك. لماذا لم تنقذهم. لماذا لم تنقذهم من الموت؟ انني أكره الحرب وأكرهك ولا أريد أن أموت.

كان الرجل حقيقياً في انهياره. أنا في الليل عبرتني هذه الحالة وهجست بالانتحار. ان اطلق على رأسي طلقة وبذلك أكفر عن خطئي القاتل. اخذت رأسه إلى صدري ورحت أهدئه وأمسح عبراته.

فوقنا راحت الطيور تعبر الفضاء وهي تزقزق. وانتشرت في الجو رائحة زهور البراري. ومن الأرض خرجت اغاني الزيزان والاصداء العذبة للطبيعة. كانت الريح رطبة والفضاء الرحب ينفتح بأضواء والتماعات تمتد فوق الجبال والغابات ناشرة أريجاً ودفقاً للحياة في جذور الشجر والحشرات والتراب والسماء الصحو.

ما زالت الحياة تجري والشمس تسطع وآلاف البشر من الشعب ما زال حياً.

قلت : انهض يا طيراوي انهض. انظر إلى الكون الحي. انا مثلك حزين لاستشهادهم يا عزيزي. الانسان ليس حجراً لكن أبو فارع اعطاني درساً سوف لن أنساه ما دمت حياً. نحن أمام اختيارين : العبودية أو الموت. وبما كان لكل منا طريقه ولا أحد يرغم الآخر على اختيار مصيره.

تعانقنا بحرارة وافترقنا.

□ الأمواج □

متى نمت ومتى استيقظت وكيف وقعت على هذا النحو البشع! بصيص كاليراعة يعمل في رأسي. موجات. موجات كتيار كهربائي أو أشعة قادمة من وراء العالم تجتاح ذهني. الذاكرة لا تعمل. بصعوبة أرى وبصعوبة أكثر ادرك ما يجري حولي وأين أنا. بين حين وآخر أتلقى صفعات عنيفة على وجهي ورأسي وأسمع كلمة: اعترف.

لا بد أن وجهي وحده سليم ومع ذلك فدماغي لا يعمل كما ينبغي. انني اسمع اصواتاً وارى اشباحاً تمرّ على الربع المقضاء من زوايا عقلي.

موجة.

مستشفى يشبه مستشفى حيفا ولكنني لا أرى خالي الجريح. تأتيني امي على بساط غيمة بيضاء وتعانقني. تقول: اشتقت لك يا حبيبي. تبدو أمي كملاك. اطوقها. جسدها هش لكنه ناعم كريش الحمام. اشكو لها عطشي وانهم لا يسقونني فتعطيني ثديها الأبيض. يسقسق حليبها في جوفي الحارّ قطرات دافئة لا تروي ظمئي.

موجة.

أطياف. مرة تشبه الطيور ومرة تشبه الزواحف. أنا على شط نهر معتكر ويجري بسرعة. على سطحه طحالب واخشاب وطيور ميتة. أحاول عبور النهر وأنا خائف. يعبر النهر شيخ ملفع بعباءة وعمامة بيضاء وذقن سوداء طويلة تلامس الأرض. أتوهمه الشيخ القطناني وقد حضر لانقاذي من مجرى التيار القوي. يحملني الشيخ على محفة ارجوانية ويعبر بي وسط الماء. قبل أن اصل إلى الضفة الأخرى يسلمني الشيخ لأناس غرباء لا اعرفهم. رجال في ثياب سود عليها بقع

حمراء. انادي أمي أن تأتي لأنني في ضيق. امي لا تجيب. اصعد فوق تلال من الضباب أو الغبار وفجأة يُلقى بي من ارتفاعات شاهقة. اشباح كثيرة تشبه الحدآت تحوّم فوقي. اسأل اين خالي وأين رجال الدفاع واين أبو فارع.

موجة.

عطشان. جوفي يحترق؟ اطلب ماء. يقترب مني رجل في لباس بدوي. يضحك ثم يبصق على وجهي. لعابه يسيل على رقبتي. يقول: يا ابن العاهرة...

تحملني الامواج وترفعني فأرى حقول قمح وشقائق نعمان وحمائم بيضاء وغابات ثم ارى اطفالاً في ثياب تسير عليها افاعٍ يلعبون في مياه ضحلة وعكرة ومليئة بالديدان. يأتيني الشيخ بصرّة تشبه قنبلة ويأمرني بقذفها إلى مسافة بعيدة. أقذفها فلا تنفجر. يقهقه الرجل المسربل بالأبيض والأسود ثم يصرخ بالسماء. أسمع رعداً ثم مطراً ولا ألبث أن أرى جسدي يغوص في الوحل.

موجة.

لا بد أنني واقع تحت تأثير مخدر لا يسمح لي بالنهوض كما لا يسمح لي بالارتواء من الماء. الاطياف تأتي وتروح وأنا لا أميزها ولا أفهم ماذا تفعل. انها تعبر بسرعة العواصف والخيول الراكضة. أم تراني تناولت كثيراً من الخمر شلّ حركتي واضاع صوابي؟ ولكن أي نوع من الخمر هذا الذي يدمر الحواس ويعمي ويصيب بهذا العطش الشديد: ماء. ماء. يا إلهي. رأسي في ضخامة جبل. بشر عمالقة يركضون على الجدران. الوان. الوان تشبه الشفق الذي كنت اراه من اعالي الكرمل.

ها هو خالي الطويل والجميل يتأبط أبو فارع ويعانقانني وهما يبكيان. اشرب دمعهما الحار فيزداد عطشي. اقول لا تتركاني وحدي خداني معكما إلى الانهار والبحيرات وينابيع الكرمل فأنا احتاج المياه. اميز صوتاً يقول:

لا تسقوه. إذا شرب مات.

موجة .

اعتقد أنهم يحاولون اطعامي . انني ارفض الطعام لكنهم يرغمونني . تمتد الايدي وتفتح فمي بقوة . احاول ان أحتجّ وأطلب أن يسقوني . ولكن الكلمات تستعصي . وكنت أريد ان اسأل بدل الطعام عن سبب سقوطي في الوحل وعن الرعد الذي هبط علي والصواعق والامطار التي اجتاحتني ولماذا كان الشيخ القطناني يضحك بصوت مجلجل كالرعد وكيف دخلت صومعته وهو يصلي ثم لماذا ترك الصلاة وناولني صرّة من الخرق والقش وقال لي هذه لعبتك يا ولدي . انها تصلح للأولاد الذين لم يبلغوا سن الرشد . ثم لماذا كنت نائماً على سرير من حجر ثم انتقلت إلى سرير من طين وكيف تناولت ذراعي التي قُطعت ورميت بها في وجه الله الذي كان يصلي وخدعني ولماذا لا يعيدون لي تلك الذراع التي سقطت مني في الغفلة لأحولها إلى صاروخ لانشر ادافع به عن الحاج ابو فارع .

موجة .

مضى زمن طويل بين الغفوة والصحو . بين أبواب الموت والحياة وأنا ما زلت اترنح بينهما . القسم الاسفل من الجسد كله والقسم الأكبر من الوعي في حالة موت . أغيب وأصحو وفي كلتا الحالتين أنا نهب العذاب والاطياف . اشعر وكأنني موثق بجبال من الحجارة والغيوم والقطن في الطبقات السفلى من أرض تارة تبدو لي كالجحيم وتارة كالجنة .

تحت موجة هذا المساء حضرت أمي وأبي واخوتي . قالوا : هل انت جاهز يا نافذ؟ نحن ذاهبون إلى بيتنا في حيفا . لقد انتهى موسم الحصاد وقطف الزيتون والقطار واقف في المحطة بلا سائق ينتظر والدك .

نمشي في الهواء بسرعة الريح . على باب بيت يشبه بيتنا القديم تستقبلنا امرأة غريبة شقراء بيدها مغزل يدور وينسج حريراً أصفر . شكل المغزل يبدو لي كشكل قنبلة مدفع . اقول : ماما : ماما : هذا ليس بيتنا . هذا بيت الشيخ القطناني وهذه

زوجته . المرأة العجوز الغريبة تغضب وتنهرنا لنخرج من بيتها . اسأل عن العابي ثم اصعد غرفتي لأرى العابي القديمة . اراها في زاوية صغيرة وقد غطاها نسيج عنكبوت . أمدّ اصابعي لأمسك مقود دراجتي الخشبية فيهجم علي عنكبوت أسود في حجم جرذ ضخم . اصرخ . تناديني امي : انزل . انزل يا نافذ . البيت مسكون . دع ألعابك . بسرعة . بسرعة . نحن ذاهبون إلى المرفأ . الزورق على أهبة الرحيل والناس سبقونا . وأنا استعد للنزول أقول ولكن انا عطشان يا ماما . الا يوجد ماء . تقول العجوز الشقراء الغريبة : لا . لا . لا ماء هنا . أنزل فيتبعني العنكبوت على الدرج . ألتفت اليه فأرى اذرعه الطويلة وعينه الحمراء . تشير العجوز الغريبة الينا فتتسارع آلاف العناكب خارجة من الجدران والزوايا وتهرول وراء العنكبوت الكبير متجهة نحونا . نهرول خارجين فزعين من البيت الغريب .

لا أدري كيف اختفى أهلي فجأة وتركوني وحيداً أواجه البحر .

□ ملحق □

□١٥□

في شتاء عام ١٩٧٠ عقب الاشتباك الذي وقع بين نافذ علاّن/الجبل/وبين قوات تقدر بفصيلة من جيش الدفاع الاسرائيلي في بيت الشيخ القطناني، بناء على اخبارية واتفاق بين المخابرات الاسرائيلية والشيخ أحمد حسن القطناني، العميل الذي اشترته ودربته لاصطياد الفدائيين وملاحقة نافذ علاّن، وبعد تسليم الشيخ المذكور قنبلة غير قابلة للانفجار يعطيها للجبل قبل الاشتباك بوقت قصير، نشرت الصحف الاسرائيلية خبر المعركة على النحو التالي:

جرى اليوم اشتباك بين مجموعة من المخربين وبين قوات جيش الدفاع في ضواحي قرية عينا بوس قتل فيها عدد من المخربين وجرح فيها المخرب نافذ علاّن الشهير بالجبل بعد أن اصيب بطلقات غزيرة. لقد ارتكب المخرب عدة جرائم هو ومجموعته ضد المواطنين الآمنين والمراكز الادارية في نابلس أبرزها قيادة هجوم على مقر الحاكم العسكري في نابلس واشتباك جماعين. كما نصب عدة كمائن لقواتنا وزرع عبوات ناسفة وأقدم على محاولات اغتيال لمواطنين شرفاء من العرب. وبعد أن نوّهت الصحف بالتعاون الانساني بين المواطنين العرب الشرفاء وقوات جيش الدفاع لملاحقة المجرمين واستئصال شأفتهم، ألمحت إلى أن المخرّب يتلقى العناية الصحية في مستشفى نابلس وبعد شفائه سيمثل أمام المحكمة العسكرية.

□٢□

بعد عام من الاشتباك وجدت جثة الشيخ أحمد حسن القطناني على عتبة داره وفي ظهره سكين غاص نصلها حتى القلب وقرب الجثة رسالة مختصرة: لن يتاح لك بعد اليوم ان تخدع الثوار بقنابل اسرائيلية لا تنفجر.

شعبنا يمهل لكنه لا يهمل.

– التموجات –

« للبحر وحده سنقول كم كنا غرباء في أعياد المدينة »
(سان جون بيرس)

فوق عينيه ووجهه وضع الرجل راحتيه، وتنهد. صعدت التنهدة الموجعة من حقول القلب، وكان يبغي أن يقول شيئاً ما تحت جناح الليل. شيء لا يرغب أن يراه في وضح النهار الفاضح.

من خلال موشورات الأصابع، لمعت أضواء المدينة، وامواج البحر. وإذ مال الرأس إلى الوراء والأعلى بحركة متعبة، تلألأت نجوم بعيدة في سماء بيروت.

– غزة كهذه النجوم السحيقة الآن!

قال الرجل العبارة، بينما كان الفيل الطفل يستمع للنشيج ويرى قطرات الدمع تتسلل من اطراف الاصابع.

●

أمامهما البحر. بحر الرملة البيضاء بموجه الشبيه بقطعان مذعورة، والشمس مدى من الماس، والأصوات. لقد جاءا من المدينة مسافة عشرين ميلاً. عندما يسأل غيلان الدمشقي: لماذا هذا الرحيل الطويل والبحر على مرمى حجر؟

يقول بشر الغزاوي باحتفالية: لأشعر بأنني رحلت إلى البحر. ثم يردف: هذا الشبيه ببحر غزة البعيد. يبدو المشهد البحري مضيئاً ومهيجاً.

النساء نصف العرايا يلمعن كاللآلئ وهن يتراشقن الماء. قطراته تسيل من منحدر النهدين نحو السرّة باتجاه الأودية. غير أن بشر بن عبد الله الغزاوي، يبدو خارج المشهد.

مذ يطأ الرمل الحار تبدأ استعراضاته وحركاته الاحتفالية مع صاحب المسبح والنُّدل والمرأة التي تدير البار والمطعم. يطلب السمك الطازج والبيرة وسيكار الهافانا، ثم يتبختر باتجاه الشاليه. وهو منبطح فوق الرمل تنشط ذاكرته الميكانيكية فيبتدئ خياله الجموح بابتداع قصص وهمية عن السفر والنساء والحرب والثورة، والتزوج المتواصل.

مرة أو مرتين يبتل بالبحر، ثم يعود ليحتسي البيرة ويدخن الجيتان متابعاً قصص البطولة القديمة والحزن.

هذه القصص تتواصل وهما على المائدة إلى أن تهوي الشمس وراء الأفق.

بعد هذا السيلان المتلاحق كموج البحر، يسأله غيلان وهما عائدان إلى المدينة: هل أنت متأكد أنك رحلت إلى البحر يا عزيزي دونكيشوت؟!

□٢□

المرأة التي حضرت في ذلك الغسق المتأخر، سمراء، طويلة الشعر. شفتاها شهويتان، لكن وجهها في قساوة الحجر.

بدت آنذاك حزينة بعينين تقطران طفولة.

على السرير المقابل، جلست. في البدء ما نبست بأكثر من: آه. ما أقذر الدنيا!

كان الرجل المتكىء على عارضة السرير الخلفية، يعاني من مغص معوي ومن كآبة.

كانت هناك موسيقا. وبين السريرين طاولة عليها أوراق ومنفضة وعلبة سجائر.

– هل كنت تكتب؟

- لا. كنت أحضّر نفسي للنوم.

ثم رزح الصمت بينهما. وإذ سألته إن كان مستغرباً حضورها المتأخر في هذا الليل، نفى بهز رأسه.

وقالت المرأة: أوصلني صديق إلى هنا بسيارته. آه. ما أقذر العالم!

من النافذة الضيقة والعالية، والشبيهة بنوافذ الزنزانات، أقبلت موجة ريح صيفية.

وقالت المرأة: ألا تخاف وأنت وحيد في هذا البيت؟

كان الآن منطوياً على جسده وقد جمع اللحاف حتى رقبته. وقال بضعف: أشعر بالبرد.

وما كانت العبارة لتتجاوز أفقها الفيزيولوجي.

وقالت المرأة بغتة: الرجل الذي أوصلني إلى هنا سألني لماذا أذهب إلى رجل آخر في أواخر الليل. فقلت: لأنني أشعر بالكآبة. ورد بنزق: بل أنت تكذبين، انني أشتهيك وها أنت تذهبين إلى فراش رجل غريب ألا تخجلين من ذلك؟ كانت تتكلم وأصابعها تغطي عينيها وشعرها مسدل حتى حوضها. كان شعرها الطويل يبدو كأغصان تتهدل على حواف السرير.

وسألها إن كانت ترغب شرب شيء ما فرفضت. وخلال لحظة بدا محرجاً ومرتبكاً. كان التشنج المعوي يتموج ويعلو، وراح الرجل يحرك اصابع قدميه لتدفأ.

تناولت المرأة كيسها وأخرجت سجائر ودخنت.

– قلت للرجل الذي جاء بي : لا أعرف كيف أقنعك بأنني لست عاهرة. 'غريب ! يا إلهي. لماذا نحن هكذا؟

وسألها الرجل الملتحف : من نحن؟

– العرب.

– أي عرب؟

كان صوت البحر ينمو عبر أدراج الليل. واستوضحت المرأة إن كانت مزعجة وثقيلة ومملة في هذا الوقت المتأخر، ونظر الرجل نحوها باندهاش : لماذا تفكرين هكذا؟

وضغط النفس والجسد ونهض إلى الحمام ثم عرج على المطبخ ليعدّ الشاي.

كان الفجر ينمو من الشرق، وريح الصباح المنعشة تتغلغل في المسام.

– أعْددْتُ لكِ شاياً. قال ذلك وهو يرتعش. وصبّ لها وله. أحس بالدفء وهو يرى بخار الشاي الصاعد.

– لماذا لا تجلس قربي. هل أنت خائف؟

– لا. انما هناك شيء آخر.

– ما هو؟

– البرد.

شربا الشاي وهما متقابلان، ودخّنا.

خفّ ضغط المغص، وانحسرت موجة الكآبة.

وقال الرجل مبتسماً : بودي أن أرقص لك!

فاجأتها العبارة فضحكت : ترقص؟

– بلى . وماذا في الأمر؟

– ولكن لماذا؟

وقال : لتزول كآبتك !

ازاح الطاولة وابتدأ يرقص . وراحت هي تصفق وتبتسم وترمي الكآبة خارج الغرفة . بعد الغبطة فوجئنا بالصباح الطفل يضحك وهو يملأ البيت .

●

وعدوني بمنصب كبير هنا أو في الخارج . سيكافئونني على ما قدمت للتنظيم .

– مثلاً؟

– مكتب في الفاكهاني أو سفير في الخارج .

– عظيم .

– انت تسخر؟

– أبداً أخي بشر . فقط أستمع وأشهد .

ويتابع بشر الغزاوي : اسمع أخي غيلان . أنا أعرف امكانياتي . لقد خبرتها في الحرب والسلم وخرجت باستنتاج لا يقبل الاعتراض : انني قادر أن أصنع شيئاً ، لا أقول خارقاً ، انما مهم جداً لشعبي وثورتي .

من شرفة البيت يلمح غيلان الدمشقي شهاباً يهوي فوق سطح البحر ويتلاشى . ووراء البحر يرى طرطوس الجميلة ، البسيطة ، الغبراء ، وجزيرة ارواد الممتدة في عرض البحر كتمساح .

شوارع من الحوانيت ، وفنادق الدرجة الأولى ، ومقاه انيقة للسواح ،

وبارات ، وشاليهات ، وسيارات مرسيدس سوداء ، ثم المرفأ الذي تهبط منه صناديق الويسكي والمارليورو ومسدسات الماغنوم وعلب الحشيش والأفيون .

- بالأمس سهرت في الكورال بيتش . أتعلم ماذا حدث ؟ يتحدث الرجل المهم المسمى بشر الغزاوي . يقول غيلان : لا . لا أعلم ماذا حدث ! يتابع بشر : يا سيدي وأنا أراقص صديقتي حدث هرج وأصوات وذعر . توقف الرقص والموسيقى وخرجنا كالمجانين . سألنا عن الخبر فقالوا : سقطت طلقات رشاش/٥٠٠/فانفجرت فقتلت اربعة : رجلان وامرأتان كانوا عراة ليلاً على الرمل . تصور !

ضحك غيلان : تصورت والتقطت لكلّ منهم صورة دموية .

- آه . أنت تسخر ؟

- ولو ! فقط أتصور المشهد الحزين .

- تصور يا سيدي . قبل ذلك بيومين مارست الجنس مع صديقتي في المكان نفسه .

- وعلى الرمل ؟

- على الرمل قرب حافة الموج .

- آه . آه . لا بد أن رامي رشاش الـ/٥٠٠/كان نائماً آنذاك . أهنئك .

- على ماذا ؟

- انك بقيت على قيد الحياة لتصنع شيئك المهم لشعبك العظيم في الأزمنة القادمة .

مشهد خاص من سيناء الـ ٧٣

□١□

الغزلان التي طوردت في ذلك الفجر البهيج، كانت قبل المطاردة ممتلئة بالبهجة. بهجة الوصول إلى منابع الماء والمرعى.

كان صباحاً مفعماً بالعذوبة والضياء كما كان صباحاً نابضاً بالغدر، وكانت الغزلان التي تعدو في عمق الصحراء تحت امواج البهجة لا ترى الصيادين ببنادقهم والعربات الوحشية. وفي المقدمة كان أيل الطليعة يندفع بالغزلان وثباً نحو حدود الشمس.

عندما كان القطيع يضعف تحت وطأة المطاردة، يرتد الأيل صارخاً بالغزلان كي تتقدم.

ريح الصباح كانت رخاء، وفوق جباه وصدور الغزلان المبللة بالعرق، راحت الشمس الدافقة من الشرق تتلألأ، غير ان الموت كان ينبض من الشمس ومن الريح ومن ذرات الرمل المتطاير.

ما تزال الغزلان الجامحة تتواثب كأمواج بحر، في الوقت الذي كانوا يقتربون فيه ببنادقهم سريعة الطلقات وسياراتهم الكاكية.

فجأة من الأمام والجوانب، فوجئت الغزلان بالكمائن فابتدأ دوار الشمس.

إذ ابتدأ الانهاك ابتدأت الغزلان تتهاوى وتركع. وفي تلك اللحظة الخائنة انهمر الرصاص من الوراء والأمام والجوانب. كان القطيع الآن داخل الدائرة المغلقة في عمق الصحراء المهجورة.

في مساحة الدائرة داخل حقل الرمي الصحراوي، راحت الغزلان المذعورة تثب نحو الأعالي وهي تتصادم وتتلقى الرصاص في الرأس والصدر والفقرات. وابتدأت الصحراء تصرخ وتنزف.

كانت الأرض تتوجع بأصداء بعيدة جارحة، تحت سماء ساطعة الضوء. تحت سماء بهية محايدة. عندما استدار أيل الطليعة ليهيب بالغزلان ان تنهض، رآها ملفعة بدمائها فوق الرمل. عبر لحظة كالبرق دار حول القطيع الدامي ثم اندفع كشهاب باتجاه صدور القتلة وهوى.

□٢□

وقال بشر الغزاوي: انتهى عصر الحب وجاء زمن القتل. انا مع الارهاب في زمن الحصار. بالأمس غزة وفيما بعد سيناء والجولان ثم جنوب لبنان. ما الذي بقي لنا غير هذا الشارع الأخير المطل على البحر!

ويتابع وهو يحتسي السكوتش: صرنا كجند طارق. البحر وراءنا والعدو يتقدم نحونا. ابتسم غيلان الدمشقي: لا تحزن يا أخي ولا تغضب هناك العرب.

– أي عرب؟

– عرب الحروب الأربع.

– عرب الهزائم المتواصلة! هيه. هيه. طظ. أخي غيلان هل لديك سيكار هافانا «سيبسيال»؟

– لماذا؟

– لنأخذه معنا إلى البحر غداً. بعد وجبة سمك وعرق توما الاكويني يطيب السيكار.

– والنساء أخي بشر هل نسيتهنّ!

– صدقني قرفت منهن. أنا ما عدت أرى في المرأة أكثر من فراش. انت ربما تحتج لكنني أقول لك، وأنا أكثر خبرة منك، أن في رأس كل امرأة مشروع عاهرة. هذه حقيقة لا تقبل الجدل.

– لا بد أنك مناضل وثوري من طراز جديد في هذا المجال حتى استنتجت ذلك!

– انت تهزأ؟

ويرتج غيلان بضحكة تعادل طلقة.

بشر بن عبد الله الغزاوي، يرمي طرف حذائه على حافة افريز الشرفة لافاً قدماً فوق أخرى.

أمامه يمتد الليل والشبابيك الناعسة بالضوء خلف ستائر مسدلة.

فجأة ينتفض: انظر. انظر. هناك امرأة تتعرى.

ويقول غيلان: هذا من أجلك لا بد.

ويقهقه بشر: هوه. هوه. أنت ماذا تعرف عن النساء يا عزيزي القديس. أفتل لهن أصابعك في الهواء فيتبعنك ككلاب الصيد.

وفي التو يفرقع، باستعراض تمثيلي، اصبعيه في فراغ الليل الهادئ.

يحدث ذلك في اللحظة التي تبدأ فيها القذائف العمياء انفجاراتها في احشاء حي الشياح.

□ ٣ □

بين الصحراء التي اغتيلت فوقها الغزلان، والمدن البعيدة، امتداد بحر لا يُعبر. وغيلان الدمشقي، من شرفة بحر الرملة البيضاء، يرى البحر الممتد جنوباً حتى غزة، وشمالاً حتى طرطوس. وتحت الشمس، يرى البحر الذي انشطر باعصار الريح الاسرائيلية والريح العربية.

في مهب هذه الرياح التي تتآخى في لحظة الحصار، ثم تنشطر في لحظة

الرعد، كان بشر بن عبد الله الغزاوي يقاتل ويطارَد ويلتجئ، ثم يسكر ويتحدث عن الجنس وسيكار هافانا وتل الزعتر.

وهما مرميان على الرمل الحار، يمتد بصراهما عميقاً نحو الشمال والجنوب. لا بصر بشر يصل غزة، ولا بصر غيلان يصل طرطوس وأوراد.

بعد ارتداد طرفيهما تتصادمُ العيون بالعيون، فتشع تحت بريق الدمع حقول غزة البرتقالية، وسهول طرطوس الخضراء.

طعنة تلك المرأة كانت قاسية. جاءت مباغتة في وقت الحصار، في وقت العري الكامل. ولكن لماذا توافقت مع لحظة اغتيال الغزلان في الصحراء المديدة.

لم تقل وداعاً. فقط استدارت، هاربة مع الرجل الآخر.

هربت عندما كانت سماء بيروت تلتهب، والأرض العربية تتشقق بالبكتيريا والجراثيم والحليب المسمم، والهجوم المضاد.

بشر الغزاوي عاتبها قبل الحرب: لقد خنتني مرتين ومع ذلك بامكاني أن اصفح. نحن يا ريم معاً في خندق ثوري واحد وعلى الثوار أن يكونوا أوفياء.

غير أن المرأة السمراء، ذات الشعر الطويل، والوجه الغجري، نفضت شعرها إلى الوراء وانطلقت في فضاء الرجل الجديد، الرجل الذي صار سماءها ودمها الجديد.

المرأة إذ تقرر أن تخون تتحول إلى كلبة مسعورة. انها تفعل ذلك في الساحات والشوارع في وضح النهار.

يقول بشر الثوري. ثم يستطرد وهو على حافة الدمع: من خيانة الوطن الى خيانة المرأة. يا إلهي نحن قوم نتعمد بالخيانة منذ هولاكو حتى خيانة زليخة امرأة الفرعون. يتنهد غيلان مغبوناً: الاستثناء عندك يتحول إلى قاعدة. انت يا صاحبي غزال يترف.

يصرخ بشر بصوته الحاد راجاً سماء الله الخرساء: الزمن الفلسطيني هو المجروح وأنا ابن هذا الزمن المغدور.

●

ستقول المرأة التي اسمها ريم: كنت مهانة في الزمن القديم. لسنوات ست

وهو يقطف زهرة عمري ، وعندما ملّني وابتدأ شبابي يغرب ، استدار عني باتجاه نساء بيروت في شارع الحمرا ورأس بيروت والروشة والكورال بيتش. ثم تقول : لا أدري ما الذي حوله من يساري متطرف إلى محترف حانات وملاهٍ. رجل كان يبدو في بداية حبنا وانخراطنا في المقاومة ، مصنوعاً من الفولاذ والثقة بالنصر. كنا معاً في خلية سرية داخل منظمة يسارية وتعمل داخل المقاومة لإقامة سلطة ثورية على مستوى الوطن العربي. من أوروبا قدمت معه. هناك تعرفت عليه. مع الزمن تأقلمت. تعلمت اللغة والعادات وصعوبة الحياة الجديدة. كان يقول لي : اننا نعمل لتغيير وجه التاريخ في هذه البلاد المتخلفة والمضطهدة والمنقسمة. عشنا حياة بسيطة ، فقيرة. في رأس النبع ثم انتقلنا إلى الفاكهاني. كانت غرفتنا بحجم تابوت. سرير وكرسيان وطاولة وأدوات مطبخ متواضعة وكنا سعداء كطيرين عاشقين. إبان الحرب عملت مع الاتحاد النسائي في شاتيلا والشياح وبرج البراجنة. هو كان يقاتل في رأس النبع وفيما بعد انتقل إلى تل الزعتر. سنوات الحرب كانت رائعة رغم قسوتها واخطائها. كنا نعتقد حقاً اننا نفعل شيئاً مجيداً. شيء سيغير وجه الدنيا. في عيون الشهداء والحماسة الفتية للمقاومة والبروق التي أشعلتها الثورات في أمريكا اللاتينية من التوبا ماروس إلى كوبا غيفارا ، كنا نرى الحياة الجديدة.

يأتي الرفاق إلى كوخنا الصغير في أوقات الهدنة. نجلس على الأرض بثيابنا الوسخة وروائحنا التي انتنت من قلة الماء وقت الحرب. ندخن ونشرب الشاي وبعض النبيذ ، ثم ندخل في حوارات حادة حول الحرب الأهلية وانحرافات المقاتلين والسرقات وعظمة الشهداء وبسالتهم ، وامكانية مدّ نار الحرب إلى كل بلاد العرب لتحرق العالم القديم ، وبناء مجتمع الاشتراكية والحرية.

في ذلك الوقت اللاهب ، وبعد ان ينصرفوا ، ننام معاً بشوق من سيموت بعد لحظة الجنس. هو كان يقول : في الحرب لماذا يتدفق الانسان بالجنس. وكنت أقول : لبرد شبح الموت.

ويقول : هل ستفرقنا الحرب؟

وأقول : الا ترى كيف نحن متداخلان كالجذر والتراب تحت لهيب الحرب!

– ولن يخون احدنا الآخر؟

– الحرب تريدنا وفاء.

وإذ ينشق جسدانا بقصف مفاجئ، ننهض. نتناول اسلحتنا ونعدو إلى مواقع الحرب.

الانسحاب

الساعة الآن تشير إلى العاشرة مساء. لقد صدرت الأوامر بالانسحاب عن طريق الجبل. خمسون مقاتلاً اتجهنا شرق المعسكر وشققنا طريقنا عبر الوادي. كنا نجتاز الصخور المسننة وأجم السنديان والعرعار والزعرور. على غير هدى نسير باتجاه الجنوب والشرق. اننا نثب بسرعة فهود مطاردة تحت هذا الليل المطارد.

تحت هذا الليل أفكر بزوجتي رغم ما حدث، وفي الوقت نفسه أفكر برفاق المخيم. إذ أصحو من افكاري أتساءل ان كنا سننجو أم سنموت؟.

أتذكر الموت. الجثث المطروحة في أزقة المخيم. كذلك أرى الأشباح وهي تركض هي ذي تصبح. أسمع صوتاً ينادي: سلّم. سلّم. قف. سلم نفسك.

الطلقات تئز من حولنا. أركض وأنا داخل حالة من الذهول والرعب. الجميع يركضون. كان العدو يقترب منا. لمحته وأنا أحاول عبور رصيف احدى القرى. بسرعة وثبت واستطعت تجاوز الرصيف.

بدأ العدو يطلق النار بغزارة وهو ينادي بأعلى صوت. صوته كان يدوي عبر الأودية والقرى والسماء: سلّم نفسك.

شعرت انني معلق بين السماء والأرض. كانت المسافة مسافة السماء عن الأرض. كنت أطير وأنا أتضرع أن اصل حدود الأرض. ارض النجاة والأمان بين طلقات تشق طريقها حولي. طلقات تحصد الحجارة والشجر وتجرح الصخور. كحزام خاطف كانت تبق من حولي، وكان هناك جسر. كان علينا لننجو أن نتجاوز الجسر. لكن الفاشيين كانوا يركزون نيرانهم على الجسر.

في لحظة خارجة عن مدار العقل والمنطق. لحظة اختراق الموت والحياة وصلت الأرض. لقد قفزت من علو خمسة أمتار. رجلي اليمنى بعد أن سقطت اعتقدت انها انخلعت.

تفحصت جسدي بسرعة لأن الوقت ما كان كافياً لتفقد الألم. كان الموت على الجسر وكان يحصد الرفاق.

تابعت بسرعة قطط البرية المطاردة والجريحة، والتحقت باثني عشر مقاتلاً.

ونحن نعدو بين الصخور، كنا ما نزال نسمع الأصوات وهي تصرخ، والطلقات تئز فوقنا وخلفنا.

بعد إنهاك أسأل، ترى ما الذي حدث للآخرين؟ استسلموا أم استشهدوا أم عادوا؟

عندما كانا يتعريان في البراري ، كان يركع أمام جسدها البرونزي . يقبل الأرض ثم يرفع ذراعيه ويأخذها بينهما . يلثم صدغها ثم عينيها وعنقها وثدييها وسرتها ، ثم ينغمر ما بين فخذيها المباركين . وهو ينهض تلوح سماء مضيئة كالنحاس ، إذ ذاك يتوالجان كجذرين يلتفان ويلتفان حتى تصرخ الأرض والمسام وتجلجل السماء برعدها النبوي .

في ذلك الوقت المديد كأفق ، ينسى الاثنان قسوة الزمن . هي تنسى ما فعل بها الرجل الآخر وهو ينسى خيانة امرأته .

بعد صلاة البراري ، يستلقي الجسدان القادمان من رحلة الجنون والطفولة فتبدو السماء عالية ، عالية ، زرقاء ، زرقاء ، كقبة هائلة ، والموت مؤجلاً .

وهما ممددان تحت هذه السماء كعصفورين ، تسأله :

أهناك في الأعالي يسكن الله؟

يضحك وهو ملقي على العشب . يتنفس ثم يقول : هناك يسكن الوفاء .

وتسأله : أنت هل ستموت؟

ينغبن ، ثم لا يفوه .

ثم تسأله : زوجي القديم كان يسكر ويعود ومعه امرأة . لماذا يطرد الرجل امرأة من حياته بعد حب عاصف؟

وتضربه صاعقة فيكتم خيانة امرأة ضاجعت رجلا مرتين وصارحته .

ثم تقول : كان وسيماً وتقدمياً ، لكنه كان يهوى جمع النساء كطوابع تذكارية . وتحمله الريح لتلوح له صورة الرجل القرد الذي اختارته زوجته .

وعندما تسأل : لماذا يقولون ان البدوي يأخذ بثأره ولو بعد أربعين عاماً؟

يقول : تأخرنا.

●

وفي زمن ما تقع غزة تحت الحصار. يجيئها البرابرة من كل حدب وصوب. لكن غزة تصرخ وتتماوج ويلمع برقها الغاضب. يُحمل بشر الغزاوي فوق اكتاف البرق ويصرخ مع غزة ثم ينشد نشيد الأممية، فتردد الرعود : غزة ستالينغراد. غزة لن تموت!

ينطلق رصاص البرابرة فيحصد القمح المتماوج، ويصاب بشر فيهوي جريحاً.

وفي ذلك الوقت تركض حقول طرطوس الخضراء لعناق البحر المتوسط تحت مساء مفعم بأغاني صيادي جزيرة ارواد العائدين من شواطئ قبرص وكريت، نحو احضان نسائهم اللواتي حرقهن الشوق للرجال.

على ضفاف أرواد، بوابة البحر، يندس بين النساء القادمات لاستقبال الرجال العائدين، رجال عابسون يرتدون سترات كاكية تخفي مسدسات الماغنوم.

من خلال الحشد وغيلان الدمشقي يطوق زوجته، تمتد الأذرع الكاكية لتفصل غيلان عن جسد زوجته الحار.

المسافات

ها نحن من جديد.

ثلاثة عشر مقاتلاً، تحت ليل حالك، نعبر الأودية. نرتطم بالصخور والأشواك، وهوام الأرض، *وفي اعماقنا الجوع والعطش والتوق للتدخين.

سير متواصل حتى الانهاك، والفزع والعرق يجللنا.

كنت في المؤخرة. رجلي تؤلمني ألماً شديداً من سقطة الجسر. بينما المجموعة تتقدمني بسرعة مذهلة.

ابتدأ التعب يخيم على الجميع. نسير مسافة ثم نكمن بعد أن نرسل دورية استطلاع.

كان المقاتلون ينتظرونني حتى أصل ثم نتابع. كم كنتُ راغباً في الاستراحة، لكنهم كانوا يواصلون المسير بسرعة. في غمرة الانهاك فكرت ان اتركهم وأستريح في كنف صخرة، ثم فكرت أنني لا أعرف الطريق إلى الجبل. ان بقائي قرب المجموعة يعطيني القوة. بدأت اتكئ على الكلاشنيكوف وكأنه عصا.

ونحن نسير بين جبلين، فوجئنا ببيتين مضيئين على السفح، وفجأة انطلقت اصوات.

بحذر عبرنا بين المنزلين، كنت بعيداً عن المجموعة حوالي ثلاثين متراً في المؤخرة. ابتدأت الأصوات تتعالى، لا بد أنهم كشفونا. أنذرونا بالوقوف، كنت اسمعهم يقولون: هناك ناس في الوادي.

وفجأة انفجر الوادي بالطلقات. كنا نسمع ازيزها وهي تنساب بيننا. المجموعة اجتازت المنزلين وثباً. بقيت وحيداً فلم أستطع العبور. اختبأت وراء أجمة من الشوك، وكنت اسمعهم وهم ينادون بعضهم بعضاً: نحن هنا في الوادي

لا تطلقوا النار. هناك مصباح يدوي يضيء بين الأشجار، كان يقترب مني، وتساءلت: هل أسلم أم أقاوم؟

وقعت فريسة حيرة واختيار أحلاهما مرّ. سأموت. صار الأمر واضحاً. آه.. من هذا الألم الحادّ في قدمي ومن هذا الحصار اللعين، قلت: ليتني بقيت في الزعتر ومتّ هناك!

كانوا يتجهون نحوي تماماً، وكنت أرى أشباحهم. خيل اليّ أنهم كشفوا موقعي. تسمرت وكتمت انفاسي. كنت قد قررت المقاومة حتى النهاية. وضعت اصبعي على الزناد. كانوا الآن على مسافة ستة إلى سبعة أمتار من مكمني. قطعت التنفس وتحولت إلى حجر. كدت أختنق واليد على الزناد. في اللحظة التي هممت أن أضغط فيها، غيروا اتجاههم نحو عمق الوادي، وراحوا يبتعدون.

أحسست بالجبل ينزاح عن صدري فتنفست عميقاً، ولكن لم أتزحزح. يبدو أن هناك كميناً على بعد عشرة أمتار تقريباً، وما زالوا يواصلون النداءات: لا تذهبوا إلى أسفل الوادي. عودوا. بقيت مكاني جامداً حتى عادوا إلى المنزل المضاء. انبثق الفجر وأنا ما زلت متكوماً على نفسي كقنفذ وراء أجمة الشوك. بدأت أفكر والصباح يكشفني: ماذا أفعل؟

ظهر الضوء ولو تابعت المسير فسأنكشف. لو تحركت من مكاني فسيروني. فكرت بإخفاء سلاحي ومتابعة السير بمظهر مدني عادي.

تحركت زحفاً وخبأت الكلاشن، ثم تركت علامة تشير اليه قرب شجرة صنوبر، وقررت النهوض والسير بلا سلاح. قطعت حوالي مئة وخمسين متراً. ما كان بالامكان متابعة السير. كنت مكشوفاً. فكرت أن أقضي كل ذلك النهار مختبئاً حتى يأتي الليل. رأيت درباً ترابية بين مجموعة من الصخور الضخمة، كانت قريبة مني. تسللت زحفاً حتى صرت بين الصخور. بحثت عن فجوة لأرقد

فيها، وبعد أن عثرت عليها أخرجت مديتي وبدأت بقطع أحزمة من الشوك. جمعتها ثم انحشرت بين صخرتين كبيرتين وبدأت أغطي جسدي بأغمار الشوك التي موهتني وأخفتني عن الأنظار.

كانت الفجوة ضيقة تشبه القبر. وداخلها كنت كالميت الحي. تعب ظهري فحاولت الانكفاء على جنبي لأستريح. استغرقت المحاولة حوالى ربع ساعة داخل هذا القبر الشوكي.

كانت نتوءات الصخر تحز جسدي وأنا أتقلب وأتحرك. حاولت النوم فما استطعت. كانت هناك رائحة الأرض والصخر والشوك، ورائحة جسدي الذي ينبض مع الأرض. كنت أشك أنني سابقى حياً. وفي هذه الغمرة نسيت آلام قدمي. كانت في رأسي صور ومشاهد التل: القتال اللامتكافيء، وصمود الاستشهاد والعطش وأنين الجرحى، والعيش على العدس، والاطفال الذين نفقوا من العطش، ومصيدة آبار المياه الواقعة تحت مرمى نيران الفاشيين، واعدام الجرحى، وانهيار الملجأ على الاطفال والنساء والجرحى، ومشاهد الذبح التي تمت بعد الخروج من الحصار.

صور، ومشاهد، وأصوات، كانت تترامح وتتطاير في رأسي في هذه اللحظة اللعينة، فيستعصي النوم. أغفو هنيهات فتمر كوابيس الرعب والموت فأستيقظ وأنا اكاد أختنق. أنا الآن كذئب جريح أنام بعين وأفتح الأخرى خشية المباغتة.

كم بدا النهار طويلاً. لم يكن نهاراً، كان قرنا من الزمن. وما كنت موقناً أنه سينقضي. لقد هدّني الجوع والعطش وهذه الاشواك. في هذا القبر عانيت أكثر مما عانيت في تل الزعتر، هناك كنت حراً معي بندقيتي وأنا أقاتل من موقع إلى موقع. أماهنا فأناداخل قبر: آه. ليتني بقيت في الزعتر. عندما غربت الشمس، وأتت الظلمة، خيم على المنطقة هدوء غريب فأحسست بالانفراج والغبطة. إذ خرجت من حفرتي خيل إلي أنني أنهض من أعماق بحر عميق مكثت فيه

دهراً. تنفست رياح الفضاء كلها وادخلتها إلى رئتي. حركت ذراعي ورجلي. كانت الدماء تنزف منها. كل جسدي كان مجرحاً، ومع ذلك قلت بفرح الحياة الجميلة: أنت ما تزال حياً يا يعقوب وينبغي أن تظل.

حثثت خطاي باتجاه مخبأ الكلاشن. اقتربت من المكان ورحت أبحث عنه. لا بد أنني نسيت العلامة والشجرة. ارتعدت، اعتقدت انهم كشفوا سلاحي لكنني لم أقطع الأمل.

تابعت البحث بين جيوب الشوك. ساعة كاملة وأنا أدور وأفتش: لا بد أن ألقى سلاحي فأنا بدونه لا شيء وبلا سلاحي سأموت.

أصداء

ويكون عصراً غريباً.

يجيء بالرعب والمجاعات وبيع الأوطان وآثار الحضارات القديمة.

عصر تسيطر عليه آلهة الغاب وحملة الماغنوم والبراوننغ والثياب الكاكية.

عصر يقول بشر الغزاوي عنه: فيه تُقتل الغزلان وتُنتزع قلوبها ثم تعلب لتباع في الوول ستريت وشوارع تل أبيب وغزة والقاهرة وأرواد وبيروت.

يقول ذلك وهو يحتسي البيرة على شواطىء بيروت الذهبية.

ثم يدخل في منولوج غريب عن طفولته وجماله القديم، وبيته الذي كان مطوقاً ببيارات البرتقال وأسيجة الصبار.

يتحدث عن أبيه الذي تزوج أربع نساء، صغراهن الأخيرة كانت في السابعة عشرة وهو على أبواب الخمسين. ابوه الذي كانوا يسمونه: صقر غزة.

ويتابع، وهو عار بثياب البحر، وعيناه في الشمس وأفق البحر، حكايات قديمة ذات رائحة ميلودرامية. كيف كان يقود المظاهرات، وكيف اعتقل لأول مرة من البوليس المصري في غزة، وكيف مارس الجنس مع ابنة خاله بين اشجار البرتقال وهو في الرابعة عشرة. كان يشرب الخمر بوحشية ويخوض شجارات دامية مع أولاد الحي. وكان دائماً هو المنتصر.

وفي غمرة هذياناته الدونكيشوتية، يتحدث عن الحشاشين واللواطيين الذين حاولوا مراودته في أزقة الأحياء الشعبية: كنت يافعا وجميلاً مثل غزال. رأيت كبيرهم يشير نحوي ويقول: يا ولد. يا غندور. يا حلاوة. تعال خذلك مصة. وانطلقت قهقهاتهم الماجنة من حولي. لا أدري كيف اندفعت نحو كبير القوادين وفي يدي المدية. فاجأته وشطبت وجهه. ذعروا من المفاجأة. تجمع الناس. هرب القواد الجريح وهو يصرخ ويولول.

غيلان الدمشقي كان يستمع لصوت البحر، ويتملى لمعان الأشعة على سطح الحقل الأزرق. بعد قليل نهض وسار على الرمل. كان الرمل المبلل ينخفض قليلاً تحت القدمين العاريتين.

راقب قدميه وهما ترسمان الآثار التي يمحوها اطراف الموج. انحنى يجمع الأصداف الصغيرة. أصداف بيضاء وأصداف بنفسجية، ناعمة وملساء. كان يجمعها حفنات صغيرة ثم يغسل عنها الرمل.

في الذاكرة لمعت شواطئ طرطوس الحزينة، فخفق القلب الحزين. سقطت من العين لؤلؤة امتلأت بها صدفة. شواطئ مدّ البصر. خضراء تنام بين اذرع البحر. اغاني صيادي ارواد ومصابيح زوارقهم الليلية. المرأة التي عشقها على الشواطيء وطارد معها سرطانات البحر وجمعا الأصداف يوماً، والتي ماتت غماً.

الآن. الآن. ينهض الحصار عالياً. عالياً. يطوق البحر والسهول الخضر، ويهبط بأشباحه السود فوق ذرا الجبال.

الجوع

وجدت الكلاشن أخيراً قرب الشجرة، انتشلته وقبلته فرحاً ثم تابعت سيري في العتم. ابتدأ الجوع والعطش واللهفة إلى سيجارة. بدأت أبحث في الظلام عن أي شيء يؤكل. كان الأمل مقطوعاً في ايجاد قطرة ماء في هذه الأرض القفر. رحت أمضغ بعض أوراق الصنوبر فالتهب جوفي عطشاً. كالحيوان انحنيت أبحث عن عشب أخضر. كانت هناك أعشاب يابسة تغطي الأرض. تابعت سيري تحت هذه الوطأة. الحياة في داخلي كانت أقوى. تناولت بعض الحجارة وضغطت بها معدتي لأخفف من صراخ الجوع. بعد سير مضنٍ وجدت نفسي داخل حقل ارضه منبسطة. انحنيت أبحث عما يؤكل. تلمست جذعاً رحت أتحسسه في الظلمة من الأسفل إلى الأعلى. آه. يا الهي. كان جذع دالية عنب. وضعت الكلاشن جانباً وتسلقت الدالية. قطفت كميات كبيرة من العناقيد، حملتها ونزلت. بدأت التهم العناقيد كثعلب. العنقود بكامله كنت احشوه في فمي انهش حبيباته بنهم حيواني. أمام هذه المائدة الالهية التي اعادتني إلى الحياة برحيقها، ظللت ساعة كاملة.

شبعت. استعدت نشاطي وطاقتي. وضعت سلاحي في كتفي وتزودت بما تبقى من عناقيد العنب. بعد أن قطعت الحقل واجهني وادٍ مظلم. بدا لي كفوهة قبر واسع. وقفت على حافته تحت الظلام الدامس. ما كان بالامكان الالتفاف حوله. أخيراً، بعد تفكير سريع، قررت شق طريقي عبر الوادي.

انحدرت. كانت الحجارة كثيفة وسريعة التدحرج، وأنا ما أزال أعرج ولا أريد أن أحدث صوتاً. وراحت الحجارة ترتطم برجلي، والأشجار تمزق ثيابي وأنا ما أزال أتابع طريقي.

بدأت أفكر برفاقي الذين فقدتهم. ماذا حدث لهم؟ أوصلوا أم لا؟ هل ما زالوا يتابعون مسيرتهم؟ وفكرت ان كنت في الطريق الصحيح أم انني اخطأت؟ وهل أصل أم لا بعد كل هذا الشقاء المرير؟ أين أنا الآن يا ربي؟

بعد اجتياز الوادي فاجأني وادٍ آخر أكثر ظلاماً من الأول. كان الوادي محروقاً. عرفت ذلك من عري الأشجار والرائحة. تجنبت الدخول في عمق الوادي. سرت في السفح حتى وصلت جزءاً أشجاره غير محروقة، فبدأت معركة مع الأشجار الكثيفة التي مزقت ما تبقى من ملابسي.

كنت أسير بقدمين مرضوضتين، لكن قويتان. فجأة انطلقت أصوات. تسمرت في مكاني: يا الشيطان ها هم ثانية! هذه المرة هل ستنجو يا يعقوب؟ رأيت رجالاً يسيرون على الحافة المقابلة من الوادي. أشعة القمر الذي بدأ يبزغ، كشفتهم. أربعة رجال مسلحون. بدأت أسير كمن يخطو في الفراغ خشية الضجة. كالريش كنت الامس الأرض. لقد أحسوا بي على ما يبدو فاختبؤوا بين الأشجار. بيننا بدأت لعبة الخوف والشك. عندما يتحركون اختبئ وإذ يختبئون أتحرك. لعبة القط والفأر.

في البداية دمر الخوف اعصابي، لكن كان علي أن اتماسك لأخوض معركة النهاية. ليتني بقيت في الزعتر أقاتل حتى اموت. أي قدر لعين قادني لأموت في هذه الأودية البعيدة!

بعد أن تناوبت لعبة الاختفاء والظهور، راودني الشك. انحرف ذهني باتجاه آخر: أيكونون شرذمة من رفاقي؟

كانت العزلة قد مزقت روحي عبر هذه الليالي القاسية. وكنت بحاجة لرائحة انسان في هذا التيه النبق التوجس، وحرب التل الضارية خلال اثنين وخمسين يوماً: ماذا لو كانوا من الفاشست؟ أخيراً قررت الاندفاع نحوهم مباشرة ورشاشي في وضع الرمي الغريزي. صحت بصوت غير عالٍ: أنتم يا من هناك!

لم يجب أحد. كنت أقترب وهم ما زالوا قابعين بين الشجر. بصرخة بين الموت والحياة، بين القتل والنجاة، بين اليأس والأمل، صحت: أنا من تل الزعتر يا شباب. أنا يعقوب شحادة، رشاشي في وضع الرمي إن كنتم أعداء. إذا كنتم رفاقاً اخرجوا ولا تخافوا.

كانت الاصبع على الزناد، وتوقعت انهمار الرصاص علي. كنت الآن على مسافة عشرة أمتار منهم. لا صوت. لا حركة. ولم يطلقوا. اقتربت أيضاً على مسافة متر منهم أخرجت بطاقتي الفلسطينية واليد ما تزال على الزناد. واجه صدري فوهة رشاش متأهب. تناول أحدهم البطاقة وتعارفنا. كانوا من جماعة شاردة غير جماعتي.

قالوا: لو لم تقل من الزعتر لقتلناك. عمرك طويل. الحمد لربك.

وانخرطنا في عناق حار.

□ ٢ □

ريم المرأة التي عرفها غيلان الدمشقي بعد الليلة الأولى، كانت امرأة حزينة، ومشتتة. انكسرت بوصلة اتجاهها في اعماق الصحراء فضاعت.

ومع أن الرجل كان يتعب من الكلام كثيراً، الا أنه كان يرى ويسمع ويتأمل، وهو يتأرجح بين الأسى والغضب الصامت. وهذه المرأة دائبة الشكوى دائبة الاحتجاج، تفيض مرارة واشمئزازاً من قذارة هذا العالم.

عندما اتهموها بالعهر والانتقال من رجل لآخر، كانت ترد عليهم بأحكام مطلقة: ماذا جنينا من حربكم؟ النساء تحولن إلى شبه مومسات للمقاتلين تحت ذريعة التحرر الميداني. قسم كبير من الثوريين سقط في الجنس والأفيون. آخرون توهموا أن باستطاعتهم تفجير الثورة على مستوى الوطن العربي فذهبوا إلى المشانق. هذه كانت المحصلة. ويسألها غيلان: والشهداء. ريم؟

تقول بأسى عميق: وحدهم المثارة. والأسفاه كانوا ضحايا. لقد نجوا بدمائهم بينما استثمرت قيادتهم رائحة الدم.

— وأنت يا ريم. أنت لماذا...؟ واأسفاه. ما كانت لديه رغبة في التتمة.

كان يعرف طاقتها الحاقدة على العالم. قدرتها الذاتية واللامتناهية على الادانة المطلقة لكل ما هو سائد.

– يخيل إلي ان اليسار المتطرف كان جموحاً أكثر مما ينبغي.

يصعد الشهيق، حاملاً عبر الصدر بوادر نشيج. مقاتلها الذي اصطفته في العصور الرديئة، أخرج سهمه الأخير بعد الحرب وأطلقه، فأصاب قلبها الصغير فتناثر. قال لها: انت عاهرة خنتني مع مقاتلي مواقعك الصغار فأنت طالقة.

– لقد وصل الدمار الروحي حافة الخيانة. أجل. أجل. الجميع يعرف من الذي سلم عاصيَ الغضبان ومجموعته لحبل المشنقة. لقد كانت الخيانة من الداخل.

– ريم!

دخلت الآن عتبة الحتك كما دخلت مدار النحيب. كانت ترتجف تحت أعصار هبَّ فوق سهوب نفسها فاقتلع الشجر والجذور والصخر.

– المرأة لا تبحث عن رجل آخر الا بعد أن يصبح فراشها بارداً. لقد حاولوا معي في المواقع لكنني رفضت. قالوا: أنت رجعية. الجنس أيضاً شراكة كالطعام والموت. لكنني صرخت بأنني أرفض هذه الفوضى.

حدث ذلك بعد أن استرخت الأشياء، وبعد أن خمد بريق الشيء الأعظم الذي فاجأ كإعصار. لقد انحسر مدّ البحر فعرّى الأصداف والطحالب والجثث والسرطانات الميتة وقطع الخشب المنخورة، وخرجت الروائح.

وفي ذلك الوقت كانت بيروت تتشح بالحداد الذي يليق بامرأة غادرها زوجها إلى مملكة الموت.

– أجل. أجل. قد تسميني عدمية لكنني ما عدت مؤمنة بشيء بعد الذي حدث. حتى المقاومة بدأت تغوص في الوحل. مملكة الفاكهاني أصبحت تعج

باللصوص والقتلة والحشاشين واللواطيين. أنظر إلى مكاتبهم الفاخرة وسياراتهم الفاخرة وولائمهم الفاخرة. إلى مهماتهم السرية، والأموال التي يبعثرونها في السمرلند والكورال بيتش وسقراط والعجمي والكومودور وملاهي الحمراء، بينما الشعب في المخيمات والقرى وأطراف المدن يتضور تحت وطأة هذا الوحش الاستهلاكي. أهذا هو حصاد الحرب الأهلية؟

– ريم! والشهداء؟ وتل الزعتر؟ وعمليات الداخل؟ ودلال المغربي؟

– هيه. هيه. النيازك. النيازك. أنت ما زلت مأخوذاً بذلك الوهج السرابي الخادع يا عزيزي غيلان.

– أي سراب؟

– سراب الدم ووثبة التاريخ والصراع الطبقي.

– وأنت. إذا خيبك رجل هل انتهى..

قطعت عبارته وهي مجللة بدمعها: طظ على الرجال. إلى الجحيم كل شيء. الأوطان الخائنة والصراع القومي والطبقي. أنا لا أتحدث عن ذلك. انني اسأل لماذا يتمزق حلم الأطفال كطائرة من ورق في الفضاء؟ لماذا أتى بي من البلاد البعيدة، من بلادي، ثم غدر بي؟

بدا صعباً اعادة التوازن لحوار بين قطبين احدهما حار والآخر بارد. أحدهما موجب والآخر سالب.

كانت الأرض ترتج بملايين الاهتزازات في أعماق المرأة التي انكسرت بوصلة اتجاهها، بينما استعيض عن ابرة الاهتزاز بهذه التموجات البرقية التي يوقعها خفقان الصدر واللسان والعينين الجريحتين.

اعتراض

اللقاء الأول كان في صالة عرض، وكان مباغتاً. مجموعة صغيرة كانت تشاهد شريطاً سينمائياً عن تل الزعتر. بعد انتهاء العرض جرت مناقشات خاطفة حول الفن وضراوة ملحمة التل. بشر الغزاوي قال بفخامته المعتادة: للفرنسيين كومونة باريس التي استمرت اثنين وسبعين يوماً ولنا كومونة التل الذي صمد اثنين وخمسين يوماً.

كانت هناك امرأة غريبة تشاهد الشريط. امرأة مثيرة شاركت في الحوار على نحو استعراضي. قالت بأن الفيلم ليس في مستوى الملحمة. الواقع كان أكثر حدة وضراوة. كانت تتكلم بأبهة امرأة واثقة مما تقول أكثر منها مقتنعة. واستطردت باجتياح تتحدث عن افلام أوربية وامريكية، ثم انتقلت تحكي عن فيلم ستالينغراد. ختمت مهرجان ثقافتها: كان ينبغي اخراج تل الزعتر بمستوى ستالينغراد. التل هو ستالينغراد الفلسطينيين.

بشر الغزاوي فاجأته حماسة المرأة فانبهر بها. وعندما صحح لها المخرج بعض الأخطاء والاسماء والمصطلحات، اندفع بشر يعترض المخرج مؤيداً المرأة. بعد الخروج من صالة العرض، سارا معاً. تحدثا باقتضاب في الشارع الضيق. هو افتتن بأبهتها وشموخها الارستقراطي وهي رأت فيه ملامح طفولة وصيد عابر. سألته: ألديك سيارة؟

قال: بالتأكيد.

- لن تكون مُحرجاً لو أوصلتني؟

- أبداً. بكل رحابة صدر.

في الطريق سألته ان كان معجباً حقاً بالفيلم فأجاب: الحقيقة. لا. أنا شاركت في معارك التل. كما قلت الملحمة كانت أكثر ضراوة وعنفاً. انما

الشريط يخدم القضية عموماً. تجاوزت المرأة الموضوع فسألت: عفواً. نسيت أن أسألك عن الاسم!

– بشر الغزاوي.

– انا اليزابيت.

– أين تسكنين؟

– في الحمرا. عمارة الكومودور.

– أوه. نحن جيران اذن. أنا أسكن في رأس بيروت.

وبطريقته التي ترتدي قفازاً حريرياً فوق جلد ذئب قال: سأكون سعيداً لو قبلت دعوتي لتناول شيء في مكان ما. ما رأيك بالكورال بيتش؟

ضحكت. نفضت شعرها القمحي المصبوغ إلى الوراء، أوكّي.

ابتسم بشر الغزاوي بانتصار. ابتسمت اليزابيت لهذا الطفل الذي يحب اللعب السريع بالنار.

□ ٢ □

قال: نبني بيتاً في الصخر يتوطد؟

قالت: نبنيه عميقاً وشامخاً.

قال: يصدّ الريح والنوائب؟

قالت: ويصد الذئاب وأزمنة الشتات.

قال: نفصد دمنا عهداً وميثاقاً؟

قالت: نفصد دمنا عهد وفاء حتى الموت.

فوق الصخر، قبالة البحر الشاهد والشمس الشاهدة، رفعا ذراعيهما فتشابكتا فضربا بهما الصخر المسنن فانفصد الدم فامتزج. هي تعرت وهو تعرى واندفعا في لج البحر. غاصا عميقاً ثم خرجا إلى السطح ثم غاصا ثم طفوا، وفي لحظة من الفرح الطفولي، داخل البحر الشاهد وأمام الشمس الشاهدة، تواشجا وجهاً لوجه وصدراً لصدر وساقين لساقين.

عندما صرخت هي وصرخ هو، ردّد البحر والشمس صدى صوت الطفل الذي تدفق بين الأبيض والأحمر. الأبيض الذي خرج من دمه والأحمر الذي خرج من دمها.

بعد حين غابت شمس ثم أشرقت. تمدد البحر وعتى. أقبل موجه يتفقد الشطآن والصخور العاتية والمنازل المرصوصة في أعماق الصخر، فوجيء الموج العاتي بدم قرمزي جاف، وبالرمل. بمنازل من الرمل المجوف.

مسح الموج الدم والرمل في لحظة برق وعاد. بعد عودته ما كان شيء قد حدث. طائر أبيض كان يغني هناك في اقاصي البحر. صوت اغانيه مزيج من الأنين والضحك.

الشبكة

مقهى ومطعم ومسبح السمرلند، لوحة من الرخام الأبيض المتناسق والمهندم، صنعها مهندسون ومعماريون أوروبيون في كل مكان على شواطيء المتوسط لتكون منتجعاً على حافة البحر. واحة هادئة للعشاق ومالكي الأرصدة والعمارات والسيارات وحملة الماغنوم والسميث.

هذه الريفييرا اللبنانية تقوم وسط براكات حزام البؤس واللاجئين ومهجري جنوب لبنان وفقراء الأوزاعي والرملة البيضاء.

وأنت تجتاز رمل البحر الأبيض، تواجهك البحيرات الاصطناعية وشماسي الصيف والحدائق المصنوعة والسترات الأنيقة للخدم الذين يتحركون كالدمى.

بعد أن تلوب في الممرات والمتاهات وفوق أدراج الرخام الأبيض تفاجئك مغارة مجوفة، صنعت باتقان لخلوات العشاق.

تقول اليزابيت وهما يلجان بوابةالمنتجع: تعال أريك مشهداً لن تنساه. تجر بشر الغزاوي من معصمه ويدخلان تحت القبة الساحرة شبه المظلمة.

- الله! ما هذا الشيء الخارق؟

وتقول اليزابيت: هذه استراحتي المفضلة.

نوازل بلون البازلت تتدلى من سقف الكهف. أضواء خافتة مصنوعة من الأحمر والأصفر والأزرق. طنافس من جلد لامع. جلود غزلان مصبوغة وملصقة على الجدران. النافذة المقوسة والواسعة تطل على المشهد البحري. بين البحر البعيد واللامع، بحيرة اصطناعية على حافة الكهف.

تغمز اليزابيت خادم الكهف فينحني ويخرج. يصير الكهف لهما الآن. على ديوان وثير ملاصق للجدار يطل على البحيرة ومشهد البحر يجلسان متلاصقين

بحميمية. الدهشة الملونة يصبغها بشر بحركات وكلمات تليق بالمكان وبهذه الليدي التي باغتته فانصعق بها.

تسأله ماذا يرغب أن يشرب فيقول: سكوتش. وتطلب هي كأساً خاصاً من الجنّ.

فخذاهما شبه متماسين، وأصابعهما تتلامسان تلامس البحيرة لجدار الكهف. لقد ارتدت الليدي اليزابيت فستاناً وردياً شفافاً في هذا الغروب القائظ. فستان محبوك مشقوق الصدر وأحد الجانبين. وكما كان الشق الصدري ينحسر حتى منتصف النهدين الأبيضين، كان الشق الجانبي يتجاوز الركبة نحو الفخذ.

امرأة كاملة الحضور ذات توهج ملكي.

- اليزابيت..

- وجثمت عيناها في عينيه. كانت أشعة عينيه تخترق شق صدرها الجامح.

- هيه!

- الحقيقة انني مسحور ومأخوذ لكأنني في حلم.

- بالمشهد. هاه. حقاً انه لساحر.

- لا. ليس بالمشهد. بل بك. يا الهي! تبدين الآن كآلهة اغريقية. تبتسم بصلافة المرأة الطاغي جمالها. يضغط بهدوء أصابعه المرخية والمستسلمة لكفها.

- لا تكن مبالغاً!

- يا إلهي! من أي نجم هبطت أيتها الساحرة. صدقيني ان احساسي بك يضارع احساس الأعمى بالضوء.

- أووه. يا للشعر!

– أبداً. أبداً. ليس هذا شعراً انه الحقيقة. فيك شيء غامض يخلب اللبّ.

اليزابيت ضحكت للاطراء. وضحكت أكثر من هذه المقولة المدهوشة بالغابة: كل النساء غامضات كالغابات. أنتم الرجال تقولون ذلك. ثم استطردت: قل لي. كم عدد النساء اللواتي رددت على مسامعهن هذه الاسطوانة؟.

غضب بشر الغزاوي للحظة: اوه اليزابيت. لا. لا. أنت تظلمينني. بشرفي لم تسمع هذه العبارة امرأة قبلك. أنا لا أجامل أبداً يا عزيزتي في مثل هذه الأمور. لقد اختفى تحت غضبه المدلل غرور الدونجوان الذي انفضحت سريرته. ومع أنه كان يعاني مأساة البحث عن الرضى والمرأة التي رسمها في رأسه وهماً وخيل اليه انه وقع عليها، الا أن اليزابيت لم تكن تعرف ولا قرأت ولا هي معنية بمأساة هذا الذي يبحر في بحار النساء ويظل عطشاً لا يرتوي.

انتهى كأس الويسكي الأول فطلبت له آخر.

في أعقاب الكأس الثانية، ابتدأ العالم يترنح في رأس بشر الغزاوي. حاول تقبيل المرأة فصدته بتهذيب: لا. نحن في مكان عام. بعد أن ننهض من هنا نذهب إلى شقتي.

– يبدو أنك قاسية.

راوغته فتخطت العبارة ومسحت شعره برقة.

– أنا انسان شفاف وحزين وأنا أحبك. قال ذلك وهو يقبل معصم المرأة التي تمسّد شعره.

وفي غمرة تدفق أناه وهياجه وانبثاق صباحاته وأماسيه، سألته بغتة: لكنك لم تقلْ لي بعد من أنت؟ وبُهت. عقد حاجبيه وسدّد نحو وجهها: ماذا تقصدين؟

- عنيت اسمك الحقيقي.

- لكنني قلته لك.

- اعطيتني الاسم الحركي لا الحقيقي.

ضحك بشر. شرب جرعة. سدد عينيه مرة أخرى إلى فسحة النهدين فقرأ شوقه وآلامه، ثم انهمرت الذكريات وضربة الخيانة.

- كأسك يا.. هل أقول بشر أم..

- لا. لا. لنشرب كأس المرحوم يعقوب شحادة.

وقرعا الكأسين. هو أترع كأسه حتى الثمالة وهي قذفت بما في كأسها إلى الأرض.

هكذا اذن!

غمزت الخادم الواقف بالباب طالبة كأسا أخرى.

- وماذا تعمل الآن؟ سألته المرأة الغامضة.

واستفاض بحكايات ذات معنى، خلطها بقايا صحوه بأمور لا معنى لها. وحكى طويلاً عن خيانة زوجته.

وهو يتعاطى كأسه الرابعة سألته لماذا خانته زوجته، فأجاب بعبارات أسية وجارحة.

كانت اسئلتها تمزج الشخصي بالعام لتنأى به عن الصحو. وسألته عن حياته وعلاقاته، وماذا يقرأ ومع من يقيم علاقات أثيرة، وما نوعية الحوارات التي تجري بينه وبين الآخرين، وعبر ذلك سألت عن وضع المقاومة بعد الحرب الاهلية، وعمليات الداخل، ولقاءات التسوية في الخارج بين العرب واليهود، وما هي مشروعاته المستقبلية، وهل ينوي الزواج مرة أخرى.

وبدت الأسئلة عادية وعابرة بين رجل سياسي وامرأة جميلة متقنة الجسم، تفتح مجالاً لرجل مهزوم وعاشق خائب، كي يكشف عن جراحه.

كل ما يعرفه وترسمه استيهاماته وتحليلاته الاستعراضية، استفاض به. لقد تدفق كما يتدفق ماء سدّ انفتحت فيه فجوة: ولكن كيف تقضي لياليك؟ بدا السؤال عرضياً هو الآخر.

تنهد بشر، ومن عينيه شعت شمس جريحة: كما ترين. نساء وخمر وثرثرات. ونفخ. اشعل لفافة وهو يرتعش: أحياناً ألجأ في أواخر الليالي إلى صديق حميم لنفسي. صديق غير ملوث ما يزال يؤمن بوثبة التاريخ وضياء الأزمنة القادمة. أشاحنه في الأمسيات فيتهمني بأنني مهزوم وأثأر من الخيانة، فأقول له بأنك ملتاث بآفاق لن تشرق شموسها أبداً.

– من هو؟

ألقت السؤال بتلقائية.

– أنت لا تعرفينه. اسمه غيلان الدمشقي. انسان مسكين وخارج هذا الزمان القحب.

اهتزازة طفيفة عرّت جسد المرأة. بشر الغزاوي لم يلحظ غير اهتزازة السكوتش في ربع الكأس الرابعة. ما عاد هناك سمرلند ولا كهف ولا بحر. غطت البحر والعالم ضبابة رمادية معتمة راحت تركض حتى وصلت مشارف طرطوس وأرواد، فحاصرتهما.

– لننهض. قالت المرأة.

– أنت مكتئبة. اليزابيت؟

– لا. لا. أبداً. لدي موعد الليلة مع صديقة تذكرته الآن.

نحن الآن خمسة فدائيين نتابع سيرنا بين الاشجار عبر سفح جبل ضخم. فاجأنا نهر. مياهه لمعت على مرمى أبصارنا تحت ضوء القمر. كنا عطاشا ورغبنا الانحدار نحو النهر. هناك صخور عالية تمنع وصولنا. عدنا ادراجنا إلى سفح الجبل. كان الذهاب إلى الماء مخاطرة بالموت. ازداد العطش وآلم الجميع. استرحنا على السفح قليلاً. حاولنا الانحدار نحو المياه التي تتلألأ تحت الأشعة وتجذبنا نحوها كحقل مغناطيس، ولكن عبثاً. عدنا إلى السفح من جديد.

فجأة سقطت في حفرة فغصت حتى رقبتي. صرخت. عاد اثنان من رفاقي وانتشلوني. وابتدأنا نسير إلى الأمام في محاذاة النهر.

لقد مضى علينا حتى الآن ستون يوماً لم يلامس فيها الماء أجسادنا.

●

يقول بشر الغزاوي: امرأة كالرعد. انا مصعوق ومخلوع القلب يا أخي غيلان. ويرد غيلان ضاحكاً: متأكد انها ستكفي دونجوان وتُلئم جراحه؟

– بشرفي. بشرفي. بلا مبالغة انها آلهة حقيقية. ولا الليدي تشاترلي يا رجل!

– نمت معها؟

– لا. موعدنا غداً.

وبحركة مسرحية فرقع اصابعه في الفضاء ابتهاجاً.

– وإذا ما فتكت بك كالأخريات وأدمت قلبك؟

– دعك. دعك من هذه الشكوك. يا أخي انت عدو محترف للنساء ولا تفقه بهن شيئاً.

– الحقيقة. أنا أقر بجهالتي المطبقة بهن يا أخي بشر.

أخذ جرعة من كأسه ثم أشعل لفافة من أخرى. كان يشرب ويدخن بانفعال طفل.

– ستكون ليلة من ليالي ألف ليلة.

ضحك غيلان: بالتأكيد. الليلة الثانية بعد الألف يا عزيزي هرون الرشيد. ولكن هل الليدي زبيدة رائعة إلى هذا الحد؟.

وصرخ وهو يحسو الويسكي كمن يرضع: زبيدة ايه! هذه اليزابيث يا رجل! عليّ الطلاق ولا هيلين طروادة. صدمت يد غيلان حديد الشرفة عفواً. ارتعدت عضلة في وجهه الذي شحب. رأى الضبابة الرمادية الراحلة، وكتم صرخة.

قال غيلان الدمشقي: وهل لا بد أن تذهب للقائها غداً؟

قال بشر الغزاوي: هذه لحظتي التاريخية وبعدها أكون أو لا أكون.

وضع غيلان اصابعه فوق عينيه ورمى رأسه إلى الجدار.

من بين الأصابع، وهو يتذكر طرطوس وارواد ورجال الماغنوم، لمح نيزكا يهوي من سماء سحيقة ويتناثر.

الليلة الثانية بعد الألف

في الليلة الثانية جاء بشر الغزاوي. وجه مربد وغاضب وعينان حمراوان تنضحان شرراً. خطا نحو الشرفة دونما تحية. جلس على كرسيه المعهودة والمشرفة على البحر. رمى رأسه إلى الخلف ومدّ ساقيه على افريز الشرفة.

بعد لحظة زفر بحرقة مرة. قال غيلان: آتيك بكأس؟ أومأ موافقاً.

خلط غيلان كأسي ويسكي بالثلج. وضع كأساً أمام بشر وأبقى كأساً بين اصابعه. وارتخى الصمت.

صوت البحر العالي كان يشتت الصمت في هذا الغسق المتأخر.

– لا شيء. لا شيء. عالم قذر وأنا هالك.

تمتم بشر بغصة ثم جرع طويلاً من كأسه. أدرك غيلان ان الرجل أصيب، وأن الجراح القديمة ستنفتح.

بشر الغزاوي يمسح شعره بعصبية، ويدخن على نحو متواصل.

– هل آتيك بسيكار هافانا؟ رد بشر: لا. لا. ما عدت أريد شيئاً غير الموت في هذا العالم القذر. مع الرشفة الأخيرة أبتدأ يسعل. شاهد غيلان النار والدم يصعدان من عينيه ووجهه. طلب كأساً أخرى. كان واضحاً أن أي سؤال سيفجره. قرر غيلان الصمت. وأحضر له كأساً.

وضع بشر اصابعه العشرة فوق وجهه، ونفخ بأصداء خارجة من مسام الدم.

– لا بد أنني أتفه مخلوق ولدته الأرض. حتى الحشرات أقل نذالة مني.

وتنهد: يا الهي. يا الهي. أية خدائع. أية أوهام في رؤوسنا نحن أولاد العواهر!

وتحت غمرة الأسى وفيضانات الجراح والبكاء، راح يهذي.

ابتدأ بالنساء الخائنات وسافر نحو الثورات المغدورة.

– عالم من وحل، عالم كلاب وخنازير. هذا الزمان القحب من أين أتى ولماذا يبقى الانسان فيه؟

صعدت الضراوة والرعبُ. امتزجت بمرارة قديمة.

اهتز غيلان الدمشقي. سأله بهدوء: ما الخبر؟ دعنا نفهم ما حدث.

– ماذا أقول لك. أنت تنبأت. آه. آه. كم أنا مخدوع. يا الهي ما أعمق خديعتي!

كان الدمع ينفر الآن من بين اصابعه راشحاً نحو معصميه.

– ولكن ينبغي ان تهدأ قليلاً لنفهم ما جرى! أهي تلك المرأة؟

تحت النشيج راح يتحدث بارتعاش عن المرأة التي صعقته وخلعت قلبه خلال ثلاثة لقاءات. في الليلة التي أسماها الليلة الواحدة بعد الألف والتي سيكون فيها أو لا يكون، اكتشف سر المرأة التي أغوته ثم خذلته وطردته من بيتها.

حتى الفجر وهي تسقيه وتذله وتستجوبه. كانت نصف عارية، لكنها تركت بينهما مسافة. رقصت له وغنت وداعبته ومدت اصابعها بين فخذيه، وسمحت له باعتصار نهديها وضغطها إلى صدره، لكنها امتنعت عليه في لحظة هبوب الشبق. كانت تسأل وتسأل وتسأل وكأنها تمثل دوراً في مسرحية دربت عليها مراراً. تحت وهج تياراته المتموجة، غب الثمل وبعد أن تأبت عليه، تلفظ بكلمات نابية عن العهر والتمثيل والادوار القذرة. واستشرت الالهة فتحولت إلى ذئبة. بصقت في وجهه ثم صرخت به: حقير. نذل. أنت لا تستحق أكثر من الركل في مؤخرتك. هيا اخرج من بيتي قبل الفضيحة!

كانت الآن واقفة وسط الصالون، متأهبة لقذفه من الباب.

صعد الدم إلى صدغه واشتعلت نيرانه القديمة. امسك بها من شعرها وباليد

الأخرى شق ثوبها الداخلي من فتحة الصدر حتى ما بين الفخذين. طرحها أرضاً ثم داس وجهها وسحق نهديها العاريين بقدمه.

صرخت: آه. أيها الكلب ستموت. أنت لا تعرف من أكون. سترى!

كانت هناك مرمية كنفاية. مذلة، ومسحوقة وغارقة بالدمع والهياج الذئبي. وهو على العتبة نظر اليها وبصق: في مؤخرتي هذه أنت ورجالك السريون يا عاهرة.

●

عندما حطموا الباب ودخلوا عليهما، كانوا يرتدون السترات الكاكية وبين قبضاتهم مسدسات الماغنوم. الطلقة الأولى حطمت زجاج نافذة الشرفة. الثانية مرت بين وجه غيلان ووجه بشر الغزاوي فاصطدمت بافريز الشرفة.

استيقظ تل الزعتر ناهضاً من تحت الأنقاض.

صرخ يعقوب شحادة الأعزل وكأنه يثب من فوق جسر ثم هوى كشهاب ناري من الطابق الثامن.

فهرس

